

## سورة النور

هي مدنية وآيها أربع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه قال في السورة السالفة « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ » وذَكَرَ هُنَا أَحْكَامَ مِنْ لَمْ يَحْفَظْ فَرْجَهُ مِنَ الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي وَمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْقَذْفِ وَقِصَّةِ الْإِفْكِ وَالْأَمْرِ بِغَضِّ الْبَصَرِ الَّذِي هُوَ دَاعِيَةُ الزَّانَا ، وَأَمْرٍ مِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النِّكَاحِ بِالِاسْتِعْفَافِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ إِكْرَاهِ الْفَتَيَاتِ عَلَى الزَّانَا .

(٢) إنه تعالى لما قال فيما سلف إنه لم يخلق الخلق عبثاً بل للأمر والنهي - ذَكَرَ هُنَا جُمْلَةً مِنَ الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاحِي .

روى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارث بن مضر رضي الله عنه قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)

## شرح المفردات

أَنْزَلْنَاهَا : أى أعطيناها الرسول كما يقول العبد إذا كلم سيده : رفعت إليه حاجتي ، والفرض : التقدير كما قال : « فَنَنْصِفُ مَا فَرَضْتُمْ » وقال « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ » والمراد هنا تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتم وجه ، بينات : أى واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام ، ولعلّ هنا يراد بها الإعداد والتهيئة ، تذكرون : أى تتذكرون وتتعتظون .

## الإيضاح

امتدح سبحانه على عباده بما أنزل عليهم في هذه السورة من الفرائض والأحكام وفضله لهم من أدلة التوحيد وبياناته الواضحة التي لا تقبل جدلاً ليمدحهم بذلك لأن يتعظوا ويعملوا بما جاء فيها مما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم وفيه صلاحهم ، فإن في حفظ الفروج صيانة للأنسب واطمئناناً على سلامتها مما يشوبها ، كما أن فيه أمناً من حصول الضغائن والأحقاد التي قد تجر إلى القتل وارتكاب أفظع الجرائم بين الأفراد ، وأمناً على الصحة والبعث من الأمراض التي قد تودي بحياة المرء وتوقعه في أشد المصائب وأعظم ألوان البلاء .

كما جاء فيها توثيق روابط المودة بين أفراد المجتمع ، ففيها نظام دخول البيوت للزوار ، وفيها حفظ الأسنة وصونها عن الفلوع في الأعراض بما لا ينبغي أن يقال حتى لا ينتشر الفحش بين الناس ، وفيها تحذير للعباد من ذلك « إِنَّ الَّذِينَ يُجْمُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

والخلاصة — إنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود الشرعية . وفي آخرها الدلائل على وحدانيته وكامل قدرته ، فأشار إلى الأولى بقوله ( وفرضناها ) وإلى الثانية بقوله : ( وأنزلنا فيها آيات بينات ) .

والفائدة في كل هذا اتقاء الحارم والبعث عنها ومعرفة الله المعرفة التي تجعل المرء يخضع لجلاله وعظيم سلطانه ، ويشعر بأنه محاسب على كل ما يعمل من عمل قلّ أو أكثر ، فإذا تم له ذلك صلحت نظم الفرد ونظم المجتمع وسادت السكينة والطمأنينة بين الناس .

الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) .

## عقوبة الزنا الدنيوية

الزاني والزانية إما أن يكونا محصنين : أى متزوجين ، أو غير محصنين : أى غير متزوجين .

### عقوبة المحصنين

إن كان الزانيان محصنين واستوفيا الشروط الآتية ، وهى أن يكونا بالغين عاقلين حريين مسلمين متزوجين بعقد نكاح صحيح - وجب رجعهما : أى رميهما بالحجارة حتى يموتا ، ويكون ذلك فى حفل عام للمسلمين ليعتبر بهما غيرهما .

وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة ورواه الثقات عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد رواه أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وزيد ابن خالد وبريدة الأسلمى فى آخرين من الصحابة ، وجاء فى رواياتهم أن رجلا من الصحابة يسمى ماعزا أقر بالزنا فرجم ، وأن امرأتين من بنى نخم وبني غامد أقرتا بالزنا فرجمتا على مشهد من الناس ومرأى منهم .

### عقوبة غير المحصنين

إن كان الزانيان غير محصنين فالعقوبة مائة جلدة بحضرة جمع من المسلمين كما بينته الآية ليفتح أمرها كما تقدم ذلك .

### طريق إثبات الزنا

يثبت الزنا بأحد أمور ثلاثة :

(١) الإقرار به وهذا هو الطريق الذى ثبت به الزنا فى الإسلام ، وبه أوقع النبي

صلى الله عليه وسلم وصحابته العقوبة على من زنى .

(٢) الحبل للمرأة بلا زوج معروف لها .

(٣) شهادة أربعة من الشهود يرونهما وهما ملتبسان بالجريمة .

## عقوبة الزنا الأخروية

تقدم أن بيننا المساوي والأضرار التي تنشأ من الزنا للأفراد والجماعات في الدنيا ،  
وعليتنا أن نذكر هنا حكمه الأخرى فنقول : اتفقت الأمة على أن الزنا من أكبر  
الآثام ، وأنه من الذنوب التي شدد الدين في تركها ، وأغلظ في العقوبة على فعلها ،  
وجاء فيه من النصوص ما لم يأت في غيره مما حرم الله ، فقد قرن بالشرك في قوله :  
« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ  
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يُزْنُونَ ، وَمَنْ يُفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » .

وروى عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا معشر الناس اتقوا  
الزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، أما التي في الدنيا  
فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر ، وأما التي في الآخرة فسخط الله سبحانه  
وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار » .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أي الذنب أعظم عند الله ؟  
قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال وأن تقتل ولدك خشية أن  
يأكل معك ، قلت ثم أي ؟ قال وأن تزني بحليلة جارك ، فأنزل الله تصديقها :  
« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ  
وَلَا يُزْنُونَ » .

## الإيضاح

( الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ) أي من زنى من الرجال  
أوزنت من النساء وهما حران بالغان عاقلان غير محصنين بزوجين فاجلدوا كلا منهما  
مائة جلدة عقوبة له على ما أتى من معصية الله .  
( ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ) أي ولا تأخذكم بهما رحمة ورقة في حكم

الله ، فتمطلوا الحدود أو تخففوا الضرب ، بل الواجب عليكم أن تتصلبوا في دين الله ولا يأخذكم اللين والهواذة في استيفاء الحدود ، وكفى برسول الله أسوة في ذلك إذ يقول : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

( إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ) أى إن كنتم تصدقون بالله ربكم وأنكم مبعوثون للحشر ومجازون بالثواب والعقاب . فإن من كان مصدقا بذلك لا يخالف أمر الله ونهيه خوف عقابه على معاصيه .

وفي هذا تهيبج وإغضاب لتنفيذ حدود الله وإقامة شريعته .  
( وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ) فإني إذا جلدا بمحضر من الناس كان ذلك أبلغ في زجرهما وأنجع في ردهما والزيادة في تأنيبهما على ما فعلا .  
والطائفة : الأربعة فصاعدا كما روى عن ابن عباس ، وعن الحسن : عشرة فصاعدا .

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) .

### المعنى الجملى

قال مجاهد وعطاء : قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشاء وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة عيشا ، ولكل منهن علامة على بابها للتعريف عن نفسها والإعلان عن أمرها ، وكان لا يدخل عليهن إلا زانٍ أو مشرك ، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن إلى أن يغنيننا الله عنهن ، فاستأذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

### الإيضاح

( الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك ) أى إن الفاسق الفاجر الذى من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء

وإنما يرغب في فاسقة خبيثة أو في مشرقة مثلها ، والفاسقة المستهتره لا يرغب في نكاحها الصالحون من الرجال ، بل ينفرون منها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من النسقة ، ولقد قالوا في أمثالهم : إن الطيور على أشكالها تقع .  
ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقى ، وقد يفعل الخير من ليس بتقى ، فكذا هذا فإن الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة ، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف .

( وحرّم ذلك على المؤمنين ) أى إن نكاح المؤمن المتسم بالصلاح ، الزانية ورغبته فيها واندماجه في سلك الفسقة المشهورين بالزنا - محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق ومن حضور مواضع الفسق والفجور التي قد تسبب له سوء القالة واغتياب الناس له ، وكم في مجالسة الفساق من التعرض لاقتراف الآثام ، فما بالك بمزاوجة الزواني والفجار ، وجاء في الخبر « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

### حكم قذف غير الزوجة من النساء

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ  
مَنْ أَيْنَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)  
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

### شرح المفردات

المراد بالمحصنات هنا : العفيفات الحرائر البالغات العاقلات المسلمات .

### المعنى الجملى

بعد أن نقر سبحانه من نكاح الزانيات وإنكاح الزانين ويبيّن أن ذلك عمل لا يليق بالمؤمنين الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان والتصديق برسوله - نهى هنا

عن رمى المحصنات به وشدد في عقوبته الدنيوية والأخروية ، فجعل عقوبته في الدنيا الجلد وألا تقبل له شهادة أبدا ، فيكون ساقط الاعتبار في نظر الناس مانع القول لا تسمع له كلمة ، وجعل عقوبته في الآخرة العذاب المؤلم الموجع إلا إذا تاب إلى الله وأتاب وأصلح أعماله فإنه يزول عنه اسم الفسوق وتقبل شهادته .

## الإيضاح

( والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة )  
 أى إن الذين يشتمون العفيفات من حرائر المسلمين فيرمونهن بالزنا ثم لم يأتوا على مرموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون بأنهم رأوهن يفعلن ذلك - فاجلدوهم ثمانين جلدة جزاء لهم على ما فعلوا من تلم الأعراس وهتك الستر دون أن يكون ذلك بوجه الحق .

( ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ) أى ردوا شهادتهم ولا تقبلوها أبدا في أى أمر من الأمور .

ثم بين سوء حالهم عند ربهم بقوله :

( وأولئك هم الفاسقون ) أى وأولئك هم الخارجون عن طاعة ربهم إذ أنهم فسقوا عن أمره وركبوا كبيرة من الكبائر باتهامهم المحصنات الغافلات المؤمنات كذبا وبهتاناً ؛ كما قال حسان يمدح أم المؤمنين عائشة :

حصان رزان ما تُرَنُّ بريبة وتصبح غرثي من لحوم القوافل<sup>(١)</sup>

وهم إن كانوا صادقين فقد هتكوا ستر المؤمنات وأوقعوا السامعين في شك من أمرهن دون أن يكون في ذلك فائدة دينية ولا دنيوية لهم ، وقد أمرنا بستر العرض إذا لم يكن في ذلك مصلحة في الدين .

(١) حصان : عفيفة ، ووزان : حصيفة الرأي ، وترنُّ : تنهم ، وريبة : أى شك في عرضها ، وغرثي : جائعة ، والمراد أنها لا تتغاب النساء كما هو شأن المرأة .

(إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) أى إلا الذين رجعوا عما قالوا وندموا على ما تكلموا من بعد ما اجترحوا ذلك الإثم وأصلحوا حالهم .

وقد اختلف فى هذا الاستثناء ، أيعود إلى الجملة الأخيرة فترفع التوبة الفسوق فحسب ، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ؟ وإلى هذا ذهب من السلف القاضى شرح وسعيد بن جبير وأبو حنيفة ، أم يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ، وإلى هذا ذهب سعيد بن المسيب وجماعة من السلف ، وهو رأى مالك والشافعى وأحمد ، وعليه فتقبل شهادته ويرتفع عنه حكم الفسوق .

ثم ذكر علة قبول التوبة فقال :

( فإن الله غفور رحيم ) أى فإن الله ستار لذنوبهم التى أقدموا عليها بعد أن تابوا منها ، رحيم بهم فيزيل عنهم ذلك العار الذى لحقهم بعدم قبول شهادتهم ووسمهم بفسوق الذى وصفوا به .

### حكم قذف الرجل زوجته

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ مِنَ الْصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) .

### شرح المفردات

يرمون : أى يقذفونهم بالريبة وبتهمة الزنا ، ولعنة الله : الطرد من رحمته ، ويدرأ : أى يدفع ، والعذاب : الحد ، وغضب الله : سخطه والبعد من فضله وإحسانه .

## المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه حكم قاذف الأجنبية بالزنا وذكر أنه لا يعفى القاذف عن العقوبة إلا إذا أتى بأربعة شهداء - ذكر هنا ما هو في حكم الاستثناء من ذلك ، وهو قذف الزوجات ، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبيّنة في الآية ، لأن في تكليف الزوج إحضار الشهود إغناطاً له وإحراجاً ، ولما يلحقه من الغيرة على أهله ثم كظم الغيظ ، إذ لا يجد مخلصاً من ضيقه .

روى عن ابن عباس أنه قال : « لما نزل قوله تعالى : والذين يرمون المحصنات الخ قال عاصم بن عدى الأنصارى : إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلاً على بطن امرأته فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قتل به ، وإن قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب ، وإن سكت سكت على غيظ ، اللهم افتح .

وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس ، فأتى عويمر عاصماً فقال : لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة ، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟ قال أخبرنى عويمر ابن عمى أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة ، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعاً وقال لعويمر اتقى الله فى زوجتك وابن عمك ولا تقذفها ، فقال : يارسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قرأتها منذ أربعة أشهر وإنها حبلى من غيرى ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : اتقى الله ولا تخبرى إلا بما صنعت ، فقالت يارسول الله : إن عويمراً رجل غيور وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلىّ ويتحدث فحملتة الغيرة على ما قال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنودي ( الصلاة جامعة ) فصلى العصر ثم قال لعويمر : قم وقل أشهد بالله إن خولة لزانية وإني لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إني رأيت شريكا على بطنها وإني لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإني من الصادقين ثم قال : قل أشهد بالله إنها زانية وإني ماقرت بها منذ أربعة شهور وإني لمن الصادقين ثم قال : قل لعنة الله على عويمر ( يعنى نفسه ) إن كان من الكاذبين فيما قال ، ثم قال : اقم ، وقال لخولة : قومي فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا زوجي لمن الكاذبين ، وقالت في الثانية : أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين ، وقالت في الثالثة : إني حبلى منه ، وقالت في الرابعة أشهد بالله إنه ما رأى على فاحشة قط وإنه لمن الكاذبين ، وقالت في الخامسة : غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين في قوله ، فترق رسول الله بينهما » .

« وفي رواية عن ابن عباس : أنها حين كانت تؤدي الشهادة الخامسة قالوا إنها الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت في الخامسة كما تقدم ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتفريق بينهما وألا يدعى ولدها الأب ، وأن لا مسكن لها عليه ولا مؤنة ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا وفاة » فصار هذا سنة المتلاعنين وسمى عملهما ( الاعان والملاعنة ) .

وفي رواية « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ابصروها فإن جاءت به أسحمة أدمع العينين عظيم الإلتيين فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرّة ( سحلية ) فلا أراه إلا كاذبا فجاءت به على النعت المكروه » .

## الإيضاح

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين)

أى والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنا ، ولم يكن لهم شهداء يشهدون لهم بصحة ما قذفوهن به من الفاحشة ، فعلى كل منهم أن يشهد أربع شهادات إنه لصادق فيما رماها به من الزنا ، والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما اتهمها به .

(ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ) أى ويدفع عنها العقوبة بالدينوية . وهى الحد أن تحلف بالله أربعة أيمان إن زوجها الذى رماها بما رماها به من الفاحشة - لمن الكاذبين فيما قال ، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما اتهمها به .

وخصت الملائعة بأن تحمى بغضب الله عليها تغليظاً عليها ، لأنها هى سبب الفجور ومنبعه بخديعتها وإطاعها الرجل فى نفسها .

وبعد أن ذكر حكم الرامى للمحصنات وللأزواج بين أن فى هذا تفضلاً بعباده ورحمة بهم فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم ورحمته بكم وأنه قابل لتوبتكم فى كل آن وأنه حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه التى منها ما شرعه لكم من اللعان - لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان ، إذ لو لم يشرع لكم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما فى النضيحة ، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها لأهل أمرها وكثير اقتراء الزوج عليها لضغينة قد تكون فى نفسه من أهلها ، وفى كل هذا خروج من سبق الحكمة والفضل والرحمة ، ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجرم بكذب أحدهما دائرة عنه العقوبة الدينوية ، وإن كان قد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهادته بأشد مما درأه عن نفسه وهو العقاب الأخرى .

## حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَقَالُوا كَذِبًا فَلَوْلَا فُضِّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنْتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو

الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْمَفُوا وَلِيَصَفَحُوا ، أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ  
غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) .

## شرح المفردات

الإفك : أبلغ الكذب والافتراء ، والعصبة : الجماعة ، وكثر إطلاقها على العشرة  
فما فوقها إلى الأربعين ، وقد عدت عائشة منها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وقد  
تولى كبره وحننة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها وزوج طلحة  
ابن عبيد الله ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت ، كبره ( بكسر الكاف وضمها  
وسكون الباء ) أى معظمه فقد كان يجمعه ويذمعه ويشمعه ، ( لولا ) كناية بمعنى هلا  
تفيد الحث على فعل ما بعدها ، مبين : أى ظاهر مكشوف ، أفضتم : أى خضتم فى حديث  
الإفك ، تلقونه : أى تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال تلقى القول وتلقنه  
وتلقفه ومنه « فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » سبحانه : تعجب ممن تقوه به ،  
بهتان : أى كذب يبهت سامعه ويحيره لمطاعته ، يعظكم : أى ينصحكم ، تشيع : أى  
تنتشر ، الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح وهى الزنا ، وخطوات واحدها خطوة  
( بالضم ) ما بين القدمين من المسافة ، ويراد بها نزغات الشيطان ووساوسه ، والمنكر :  
ما تنكره النفوس فتتفر منه ، زكا : أى طهر من دنس الذنوب ، ولا يأتل : أى  
لا يحلف ، الفضل : الزيادة فى الدين ، السعة : الغنى .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم من قذف الأجنبيات وحكم من قذف الزوجات -  
ذكر فى هذه الآيات العشر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان  
من المنافقين ، صيانة عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومجل القصص ما رواه البخاري وغيره عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت .

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أفرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحابها ، فأفرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي ( نصيبي ) فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب فحُملت في هودج فسرنا حتى إذا قلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودي بالرحيل ، فقمتم ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي ، فلمست صدرى فإذا عقدي من جِرْع ظفَارٍ قد انقطع فرجعت فالتسته فخبسني ابتعاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فحُمت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب ، فتيمنت منزلى وطلنت أنهم سيفقدوننى ويعودون فى طلبى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فمت ، وكان صفوان بن المَعَطَّل السَّامِى من وراء الجيش ، فلما رأى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه ، فغمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يديها ، فقمتم إليها فركبتها وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى نحر الظهيرة ، وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى ، فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاصوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ، فقدمنا المدينة فاشتبكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريدنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريدنى ولا أشعر بالبشر ، حتى خرجت بعد ما نهت ، وخرجت مع أم مسطح قبل ( المناصع ) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكما تتأذى بالكنف أن

أن تتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح ( هي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأما ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ) قبل يتي حين فرغنا من شأننا ، فعمرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقالت أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أي هتكتك أو لم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي ، فلما رجعت إلى منزلي ودخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيمك ؟ قلت أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قال نعم ، قالت وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قباهما ، فجئت أبوي فقلت لأمي : أي أمتك ، ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هونتي عليك ، فوالله لعلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها : قالت قلت سبحان الله ، أو قد تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم ، قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ؟ ثم أصبحت فدخل علي أبو بكر وأنا أبكي ، فقال لأمي ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها ، فأكب يبكي ، فبكي ساعة ثم قال : اسكتي يا بنية ، فبكيت يومئذ ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلي المقبل لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظن أبواي أن البكاء سيفنق كبدي ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي يستشيرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار علي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي في نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما علي فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية ( يعني بريرة ) تصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أسرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عيني أهلها فتأتي الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من

عبد الله بن أبي قتال وهو على المنبر : يا معشر المساهين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال : أنا أعذرك يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية ، فقال أى سعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن خضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة ، كذبت لعمر الله لثقتنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتناور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ، ثم أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى بيت أبوى ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، قالت فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس عندى ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فاما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه دمة ، قلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمى : أجبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ، إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم حتى كدتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إنى بريئة (والله يعلم أنى بريئة) لاتصدقونى

بذلك ، واثن اعترفت لكم بأمر الله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثالا إلا كما قال يوسف : « قَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم أنى بريئة وأن الله سيرئى ببراءتى ، ولكنى والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام رؤيا يبرئنى الله بها ، قالت والله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ، إن الله قد برأك ، فقالت لى أمى قومى إليه ، فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى ، فأنزل الله : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ » العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لعرايته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله : « وَلَا يَأْتِي أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ - إِلَى قَوْلِهِ - غَقُورٌ رَّحِيمٌ » فقال أبو بكر : إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت ، فقالت يا رسول الله : أحمى سمعى وبصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا .

قالت عائشة : وهى التى كانت تسامينى ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حنّة تحارب لها ، فهالكت فيمن هالك .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق  
حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء .

## الإيضاح

( إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ) أى إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان  
جماعة منكم أيها المؤمنون تعاونوا وأجمعوا أمرهم على إعلائه وإذاعته بين الناس لمقاصد  
لهم أخفوها والله عليم بما يفعلون .

وفى التعبير ( بعصبة ) بيان أن هؤلاء شردمة قليلون وأنهم هم الذين ينشرونه ،  
لا أنهم عدد كثير من الناس .

( لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ) أى لا تظنوا أن فيه فتنة وشرا ،  
بل هو خير لكم لا كتسابكم به الثواب العظيم ، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ،  
وظهور كرامتكم على الله بإزال قرآن يتلى مدى الدهر فى براءتكم وتعظيم شأنكم ،  
ولما فيه من تهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا ، إلى نحو  
ذلك من القوائد الدينية والآداب التى لا تخفى على من تأملها .

ثم ذكر عقاب من اجترحوه - كل منهم بقدر ماخاض فيه فقال :  
( لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ) أى لكل امرئ منهم جزء  
ما اجترح من الإثم بقدر ماخاض فيه ، فإن بعضهم تكلم ، وبعضهم ضحك كالمسرور  
الراضى بما سمع ، وبعضهم أقلَّ وبعضهم أكثر .

(والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) أى والذى تحمل معظم ذلك الإثم منهم  
وهو عبد الله بن أبى ( عليه اللعنة ) له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا  
فبإظهار نفاقه على رموس الشهداء ، وأما فى الآخرة فبِعذاب لا يقدر قدره إلا  
العلم الحكيم .

وقد كان هو أول من اختلقه لإمعانه فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقال الضحاک : الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها وجلدها معها امرأة من قريش ، وإنما أضاف الكبير إليه لأنه ابتداء بذلك القول ، لاجرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . ثم عاتب الله أهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرفج في أمر عائشة وزجرهم بتسعة أمور :

(١) (ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) أى هلا إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظنتم بمن اتهم بذلك خيرا ، لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن ويكفكم عن إساءتكم أنفسكم أى أمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم كما قال « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » وقال « إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَأَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وهلا قلتم حينئذ هذا كذب ظاهر مكشوف ؟ فإن الذى وقع لم يكن فيه ما يراتب منه - ذاك أن محبى أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان وقت الظهيرة والجيش أجمعه يشاهد ذلك ، ورسول الله بين أظهرهم ينفي كل شك ، وإنما قيل ما قيل لحسد في القلوب كامن ، وبقض في النفس مكتوم .

ثم علل سبحانه كذب الأفكين ووجههم على ما اختلقوه وأذاعوه بقوله :

(٢) (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) أى هلا جاء الخائضون في الإفك بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا وما رموها به .

(فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى حين لم يقيموا بينة على ما قالوا فأولئك المفسدون هم الكاذبون في حكم الله وشرعه .

(٣) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من أجلها الإمهال للتوبة ، ورحمته في الآخرة بالعفو بعد التوبة - لعجل لكم العقاب في الدنيا من جراء ما خضتم فيه من حديث الإفك والبهتان .

ثم بين سبحانه وقت حلول العذاب الذي كانوا يستحقونه لولا الفضل والرحمة بقوله :

(٤) (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) أى ولولا تفضله ورحمته لمسكم ذلك العذاب وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه ، وقولكم قولا بالأفواه دون أن يكون له منشأ في القلوب يؤيده ، وظنكم إياه هينا سهلا لا يعابأ به ، وهو من العظام والكبائر عند الله .

وخلاصة ذلك - إنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها :  
( أ ) تلقى الإفك بالألسنة ، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له ما وراءك ، فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر حتى لم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه ، فهم قد فعلوا جهد المستطاع في نشره .

( ب ) إنه قول بلا روية ولا فكر ، فهو قول باللسان لا يترجم عما في القلب ، إذ ليس هناك علم يؤيده ولا قرآن أحوال وشواهد تصدقه .

( ح ) استصغار ذلك وحسابه مما لا يؤبه له ، وهو عند الله عظيم الوزر ، مستحق لشديد العقوبة .

(٥) ( ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانه هذا بهتان عظيم ) أى وهلاحين سمعتموه ممن بدأ به وانتحلوه أو ممن تابعه في القول - قلتم تكذيبا له وتهويلا لشأن ما ارتكبه من الجرم : لا يحل لنا أن نتكلم بهذا ولا ينبغى لنا أن نتفوه به سبحانه رب - هذا كذب صراح يحير السامعين أمره لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعرفان والطهر ، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت المقدس ، بيت النبوة الذى هو فى الذروة العليا من الإجلال والاحترام وعظيم المكانة ؛ وإذا جاز الخوض فيه على هذه الشاكلة فماذا يبق للمؤمنين بعدئذ ؟ أفليس هؤلاء هم الأسوة الحسنة ، وينبوع الطهر ومنهم يقبس المؤمنون فضائل الدين وشريف الأخلاق ؟

وإنا لنبرأ إليك ربنا منه وأن تلوكة ألسنتنا وأن يحمل الهواء تلك النبرات الصوتية لتصل إلى أسماعنا ، كما نبرأ إليك ربنا من كل أفك أئيم سولت له نفسه أن يكون الوسيلة في انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين .

وخلاصة هذا - تنزه ربنا أن يرضى بظلم هؤلاء القاذفين والأيامقهم على عظيم ما ارتكبوا وعلى كبير ما اجترحوا من الإثم والفسوق ، وأن توسم زوج نبيه بالفجور ، والعقل والدين يمتنعان الخوض في مثل هذا ، لأن فيه إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم والله يقول « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ولأن فيه إشاعة الفاحشة التي أمر الله بسترها ، ولأن في إظهار محاسن الناس وترك معايبهم تحلقا بأخلاق الله وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله » .

ثم حذر عباده المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا فقال :

(٦) (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) أى يعظكم الله بهذه المواعظ التي بها تعرفون عظم هذا الذنب وكبير هذا الجرم ، وأن فيه النكال والعقاب بالحد في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، كي لا تعودوا لمثله أبدا إن كنتم من أهل الإيمان تمتظون بعظات الله ، وتأتمرون لأمره وتنتهون عما نهاكم عنه .

وفي قوله : ( إن كنتم مؤمنين ) إيماء إلى أن الإيمان لا يمنع من فعل هذا .

( ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ) أى ويفضل الله لكم في كتابه آيات التشريع ومحاسن الفضائل والآداب ، وهو العليم بكم ، لا يخفى عليه شيء منها ، فيجازى الحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، الحكيم في تدبير شئونكم وفيما كلفكم به مما فيه سعادتكم في معاشكم ومعادكم ، وبه تسمون نفوسكم وترقى إلى عالم الأرواح وتكونون خير الأمم في سياسة الشعوب وعماراة الأرض وإقامة ميزان العدل بين أفرادها « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » ولقد صدق الله وعده وعمر أسلافنا الأولون ما كان معروفوا في ذلك الحين وبشوا فيه فضائل الدين وسماحته

حتى صاروا مضرب الأمثال ، فلما انحرفوا عن الصراط السوى والنهج التويم تقلص ظلمهم وذهب ربحهم وصاروا أذلاء مستعبدين بعد أن كانوا السادة الحاكمين ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما كان من أنفع المواعظ بيان ما يستحقه المذنب من العقاب على جرّمه بين ذلك بقوله :

(٧) (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) أى إن الذين يحبون أن يذيع الزنا في المحصنين والمحصنات من المؤمنين والمؤمنات ، لهم عذاب موجع في الدنيا بإقامة الحد عليهم واللعن والذم من الناس ، وفي الآخرة بعذاب النار وبئس القرار .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » وعنه عليه السلام أنه قال : « لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ، ومن أقال عثرة مسلم أقال الله عثرته يوم القيامة » .

(والله يعلم وأتم لاتعلمون) فردوا الأمور إلى ربكم ترضدوا ، ولا ترووا ما لا علم لكم به ، ولا سيما حلائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتهلكوا .

ثم كرر فضله ورحمته على عباده اللمة عليهم بترك المعالجة بالعقاب فقال :  
(٨) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم) أى ولولا أن الله تفضل عليكم وأبقاكم بعد الخوض في الإفك ومكنكم من التلافي بالتوبة لهلكتم ، لكنه لرأفته بعباده لا يدع ما هو أصلح للعبد وإن جنى على نفسه .

وبعدئذ حذر عباده من اتباع وساوس الشيطان فقال :

(٩) (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تسلكوا سبل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفحشاء في الذين آمنوا وإذاعتكموها فيهم بروايتكم إياها عن نقلها إليكم .

ثم ذكر سبب النهي فقال :

( ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ) أى ومن يتبع الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإنه لا يأمر إلا بهما ، ومن هذا شأنه لا ينبغي اتباعه ولا طاعته .

ثم أكد منته على عباده فقال :

( ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ) أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بتوفيقكم للتوبة التى تمحو الذنوب وتغسل أدرانها ما طهر أحد منكم من ذنبه وكانت عاقبته النكال والوبال ، واعاجلكم بالعقوبة كما قال :

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ » .

( ولكن الله يركى من يشاء ) أى ولكن الله جلت قدرته يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبتهم من تلك الذنوب التى اجترحوها تفضلا منه ورحمة كما فعل بمن سلم من داء النفاق ممن وقع فى حديث الإفك كحسان ومسطح وغيرهما .

( والله سميع علم ) أى والله سميع لما يقولون بأفواهكم من القذف وإثبات البراءة ، علم بما فى قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو كراهتها ، ومجازيكم بكل ذلك .

وفى هذا حث لهم على الإخلاص فى التوبة والابتعاد جهد المستطاع عن المعصية وارتكاب الأوزار والآثام .

( ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤثروا أولى القرى والمساكين والمهاجرين ) أى ولا يحلف من كان ذا فضل وسعة منكم أيها المؤمنون بالله ، ألا يعطوا ذوى قرابتهم المساكين المهاجرين كمسطح ابن خالة أبى بكر الذى كان فقيرا وهاجر من مكة إلى المدينة وشهد مع رسول الله بدرًا .

روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح ابن أمانة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال .

ذاك أنه بعد أن أنزلت براءة عائشة وطابت النفوس وتاب الله على من تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه - تفضل وله الحمد والمنة فعطف الصديق على قريبه مسطح وكان ابن خالته وكان مسكيناً لآمال له وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها .

( وليعفوا وليصفحوا ) أى وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرماتهم مما كانوا يؤتونهم قبل ذلك ، وليعودوا لهم إلى مثل الذى كان لهم عليهم من الإفضال .  
ثم رغبهم في العفو والتفضل فقال :

( ألا تحبون أن يغفر الله لكم ) أى ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضاله عليكم ، والجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح الله عنك ، فحينئذ قال الصديق : بلى والله نجب أن تغفر لنا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبدا .

( والله غفور رحيم ) أى والله غفور للذنوب من أطاعه واتبع أمره ، رحيم به أن يعذبه على ما كان له من زلة قد استغفر منها وتاب إليه من فعلها .  
وفي هذا ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم عليه بالمغفرة من الذنوب وحث على مكارم الأخلاق .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ  
وَيَعْمَلُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) .

## شرح المفردات

الحصنات : العفيفات ، الغافلات : أى عن الفواحش وهن النقيات القلوب  
اللاتى لا يفكرن فى فعلها ، لعنوا : أى طردوا من رحمة الله فى الآخرة وعذبوا  
فى الدنيا بالحد ، دينهم : أى جزاءهم ومنه « كما تدين تدان » الحق : أى الثابت الذى  
يحقق لهم لا محالة ، أن الله : أى وعده ووعيده ، الحق : أى العدل الذى لا جور فيه .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أم المؤمنين عائشة وبين عقاب من اتهمها بالإفك وشديد  
عذابه يوم القيامة وأسهب فى هذا - أعقب ذلك ببيان حكم عام وهو أن كل من  
اتهم محصنة مؤمنة غافلة من الخنا والتجور - فهو مطرود من رحمة الله بعيد عن دار  
نعيمه معذب فى جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحا .

## الإيضاح

( إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم  
عذاب عظيم ) أى إن الذين يتهمون بالفاحشة العفيفات الغافلات عنها المؤمنات بالله  
ورسوله - أُبعِدُوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم  
جزاء ما اقترفوا من جنائياتهم ، فهم مصدر قالة السوء فى المؤمنات وإشاعة الفاحشة  
بين المؤمنين والقدوة السيئة لمن يتكلم بها ، فعلهم وزرها ووزر من تكلم بها كما ورد  
فى الحديث : « من سن سنة سيئة فعلينه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .  
( يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ) أى ولهم ذلك  
العذاب الذى لا يقدر قدره يوم يحمدون ما اكتسبوا فى الدنيا من الذنوب حين  
سؤالهم عنها ، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون من قول أو فعل ،  
إذ ينطقها الله بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر منها من أفعال صاحبها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالُوا لُجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ » .

عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة عُرِّفَ الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ، فيقول كذبوا ، فيقال أهلك وعشيرتك ، فيقول كذبوا ، فيقال احلفوا فيحلفون ، ثم يُصمَّمهم الله فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ثم يدخلهم النار . »  
ويرى فريق من المفسرين أن الشهادة هنا ليست الشهادة باللسان ، بل شهادة الإثبات والبيان ، إذ كل ما يعمله الإنسان في الدنيا من قول أو فعل تنطبع له صورة على العضو الذي فعله ، فالكلمة بقولها تنطبع لها صورة على اللسان ، واليد التي تمتد لفعل شيء ، والرجل التي تخطو إلى عمل ، كل ذلك يحفظ على نفس الجارحة التي فعلته ، فما أشبه ذلك بالصور التي تؤخذ اليوم لأصابع المجرمين وبصمات أيديهم وأرجلهم في قلم تحقيق الشخصية للرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ضبط أولئك المجرمين ، فما ينطبع إذ ذاك على اللسان واليد والرجل يكون كافيا جد الكفاية في إثبات الجرم على أولئك المجرمين والطغاة الظالمين .

( يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ) أى في هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم على أعمالهم ويعلمون أن ما كانوا يوعدون به في حياتهم الدنيا من العذاب هو الحق الذي لا شك فيه ويزول عنهم كل ريب كان قد ألم بهم في الدار الأولى .

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف الحصنات الغافلات المؤمنات » رواه الشيخان .

قال صاحب الكشاف : ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعده به العصاة

لم تر أن الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفاك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والمعقاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ماركب من ذلك ، واستنطاق ما أقدم عليه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكانت كافية بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة بأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله اه .

الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِثِينَ ، وَالْأَخْيِيثُونَ لِلْأَخْيِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) .

### المعنى الجملى

بعد أن برأ سبحانه عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامى الحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله - أردف ذلك بدليل ينفي الريبة عن عائشة بأجلى وضوح - ذاك أن السنة الجارية بين الخلق مبنية على مشاكلة الأخلاق والصفات بين الزوجين ، فالطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين ، ورسول الله من أطيب الطيبين ، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات على مقتضى المنطق السليم ، والعادة الشائعة بين الخلق .

### الإيضاح

( الخبيثات للخبيثين ) أى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال لا يتجاوزنهم إلى غيرهم .

(والخبيثون للخبيثات) أى والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، لأن  
المجانسة من دواعى الألفة ودوام العشرة .

(والطيبات للطيبين) أى والطيبات من النساء للطيبين من الرجال لما قد عرفت  
من الأئس بمن يحاكيك فى الصفات ويحانسك فى الفضل والكمال .

(والطييون للطيبات) أى والطييون أيضا للطيبات ممنهن لا يتجاوزوهن إلى  
من عداهن .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين  
والآخرين ، استبان أن الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات واستبان بطلان  
ما أشاعه المرجفون من أهل الإفك .

(أولئك مبرءون مما يقولون) أى أولئك الطييون والطيبات ومنهم صفوان  
وعائشة مبرءون مما يقول الخبيثون والخبيثات من النساء .

(لهم مغفرة ورضق كريم) أى لهم مغفرة عن ذنوبهم التى اقترفوها من قبل ،  
ورزق كريم عند ربهم فى جنات النعيم .

(تنبية) هذه الآية الكريمة تشرح الغرائز والطباع وتبين أن الإنسان بل  
هذا الوجود لاتلاؤم بين أجزائه إلا بصفات متناسبة ، فالكرة الأرضية متجاذبة  
الأجزاء وكرة الهواء مطيعة لمجموعها لما بينها من تناسب وتشابه فى الصفات ، وهكذا  
أخلاق الناس وصفاتهم إذا تشابهت اتفقوا ، وهم يكونون يوم القيامة كذلك ،  
لا يجتمعون إلا حيث يتفقون .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا  
وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا  
فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) .

### شرح المفردات

حتى تستأنسوا : أى حتى تستأذنوا ، إذ به يحصل أنس أهل البيت ، وبدونه يستوحشون ويشق عليهم ذلك ، تذكرون : أى تتعظون ، أزكى : أى أطهر ، جناح : أى حرج ، متاع : أى حق تمتع ومنفعة كإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع كحوائت التجارة والفنادق والحمامات ونحوها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات الأجنبية وحكم قذف الزوجات ، ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك وبسط ذلك غاية البسط ، وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة فى كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة - أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره ، وبين أنه لا يدخله إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لا يوجد بحال تورث التهمة التى أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة ، إلى أن الإنسان قد يكون فى بيته ومكان خلوته على حال لا يود أن يراه غيره عليها .

روى عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار «أن امرأة قالت يارسول الله : إني أكون فى بيتى على الحال التى لأحب أن يرانى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتينى آت فيدخل علىّ فكيف أصنع ؟ فنزلت (يا أيها الذين آمنوا) الآية » .

### الايضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسألوا على أهلها) أدب الله عباده المؤمنين بأداب نافعة فى بقاء الود وحسن العشرة بينهم ،

ومن ذلك ألا يدخلوا بيوت غيرهم إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لا يطلعوا على عورات سواهم ، ولا ينظروا إلى ما لا يحل لهم النظر إليه ولا يقفوا على الأحوال التي يطويها الناس في العادة ويتحفظون من اطلاع أحد عليها - إلى أن في هذا تصرفا في ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه .

وينبغي أن يكون الاستئذان ثلاث مرات ، فإن أذن له دخل وإلا انصرف ، فقد ثبت في الصحيح أن أبا موسى الأشعري حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس (يعنى أبا موسى) يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك؟ قال إني استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليانصرف » .

(ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) أى الاستئذان والتسليم والانتظار حتى يؤذن لكم خير من الدخول بغتة أو من الدخول على عادة الجاهلية ، فقد كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول حيميم صباحا ، حيميم مساء ، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في الحاف واحد .

وقد أرشدكم ربكم إلى ذلك كى تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به .

( فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ) أى فإن لم تجدوا فيها أحدا ممن يملك الإذن بأن كان فيها عبد أو صبي فلا تدخلوها حتى يأذن لكم من يملكه وهو رب الدار .

وقد استثنى من ذلك ما إذا دعت الضرورة إلى الدخول فورا كإطفاء حريق أو منع حدوث جناية أو نحو ذلك .

( وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ) أى وإن قال لكم أهل البيت الذى تستأذنون فيه ارجعوا فارجعوا ، فإن الرجوع أظهر لكم في دينكم ودنياكم ، لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان ،

ولما في ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس ، وربما ظن بأهل البيت سوء من وقوف الأجانب على أبوابهم .

( والله بما تعملون عليم ) أى والله عليم بكل مقاصدكم ونواياكم من دخول البيوت ومجازيكم على ذلك .

ولما بين حكم البيوت المسكونة بين حكم البيوت غير المسكونة فقال :

( ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتنا غير مسكونة فيها متاع لكم ) أى ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتنا غير معدة لسكنى قوم معينين ، بل معدة ليطمئنع بها من يحتاج إليها كائننا من كان كالغنادق والحوانيت والحمامات ونحوها مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء والاعتسال ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم - غير موجود فيها .

روى أن أبا بكر قال «يا رسول الله : إن الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان ، وإنما لاختلاف في تجارتنا فننزل هذه الخانات ، أفلا ندخلها إلا بإذن ؟ فنزلت الآية » .

( والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ) أى والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد .

وفى هذا من الوعيد الشديد ما لا يخفى .

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلَا يُضْرِبْنَ بِحُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

أَوْ آبَائِهِمْ أَوْ آبَاءَ مُؤْمِنِينَ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَ مُؤْمِنِينَ أَوْ إِخْوَانِهِمْ  
 أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ  
 أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى  
 عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ،  
 وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) .

### شرح المفردات

غض بصره : خفض منه ، وانلمر : واحدها خمار ، وهو مانع يغطى به المرأة رأسها  
 (طرحه) والجيوب واحدها جيب : وهو فتحة في أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد ،  
 والبعولة : الأزواج واحدهم بعل ، والأرببة : الحاجة إلى النساء ، والطفل : يطلق على  
 الواحد والجمع ، لم يظهروا : أى لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

### المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها  
 منعا للقييل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم - أمر رسوله أن يرشد  
 المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم ، إذ ربما كان ذلك ذريعة  
 إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التى نهى الدين عنها .

### الإيضاح

( قل المؤمنين يعضوا من أبصارهم ) أى قل أيها الرسول المؤمنين كفوا أبصاركم  
 عما حرم الله عليكم ولا تنظروا إلا ما يباح لكم النظر إليه ، فإن وقع البصر على محرم  
 من غير قصد فليصرفوا أبصارهم عنه سر يعا لما رواه مسلم عن عبد الله الجبلى قال :

« سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصرى » ،  
 وروى أبوداود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى : « يا على لا تتبع النظرة النظرة ،  
 فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » ، وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس على الطرقات ، قالوا يا رسول الله لا بد لنا  
 من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن أيتيم فأعطوا الطريق حقه ،  
 قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام  
 والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

والحكمة في ذلك : أن في غض البصر سدا لباب الشر ، ومنعاً لارتكاب المآثم  
 والذنوب ، والله در أحمد شوقى حيث يقول :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

( ويحفظوا فروجهم ) بمنعها من عمل الفاحشة ، أو يحفظها من أن أحداً  
 ينظر إليها ، وقد جاء في الحديث : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت  
 يمينك » .

( ذلكم أزكى لكم ) أى ما ذكر من غض البصر وحفظ الفرج أطهر من دنس  
 الريبة وأنفع ديناً ودنياً فقد قالوا : النظر يزيد الزنا ورائد الفجور ، والله در شاعرهم :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر  
 كم نظرة فعلت في قلب فاعلها فعل السهام بلا قوس ولا وتر  
 والمرء مادام ذا عين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر  
 يسر ناظره ما سر خاطره لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

( إن الله خبير بما يصنعون ) فلا يخفى عليه شيء مما يصدر منهم من الأفعال  
 كإجالة النظر واستعمال سائر الحواس ، وماذا يراد بذلك ، فلتكونوا على حذر منه  
 تعالى في كل ماتأتون وما تذررون .

وبعد أن أمر رسوله بأمر المؤمنين بغض أبصارهم أمره بأن يأمر المؤمنات بذلك .  
 ( وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ) فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن  
 النظر إليه من عورات الرجال والنساء ( ما بين السرة والركبة ) وإذا نظرن إلى ما عدا  
 ذلك بشهوة حرم ، وبدونها لا يحرم ، ولكن غض البصر عن الأجانب أولى بهن  
 وأجمل ؛ لما روى أبو داود والترمذى عن أم سلمة « أنها كانت عند رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه بعد ما أمرنا بالحجاب ،  
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه ، فقلت يا رسول الله : أليس  
 هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو عميا وان  
 أنتما ؟ أو لستما تبصرانه ؟ » .

( ويحفظن فروجهن ) عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق ويستترن بها حتى  
 لا يراها أحد .

( ولا يبيدين زينتهن إلا ما ظهر منها ) أى ولا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب  
 إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالثياب والكحل والخضاب ، وإنما  
 المؤاخذة فى إبداء ما خفى من الزينة كالسوار والخلخال والدُمْلُج والقلادة والإكليل  
 والشاح والقرط ، لأن هذه الزينة واقعة فى مواضع من الجسد ( وهى الذراع والساق  
 والمعصد والعنق والرأس والصدر والأذن ) لا يحل النظر إليها إلا لمن استثنى  
 فى الآية بعد .

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى إخفاء بعض مواضعها فقال :

( وليضربن بخمرهن على جيوبهن ) أى وليلقين خمرهن على جيوبهن ليسترن  
 بذلك شعورهن وأعناقهن وصدورهن حتى لا يرى منها شيء ، وكان النساء يغطين  
 رءوسهن بالخمر ويسدلنها من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن كعادة  
 الجاهلية فنهين عن ذلك ، قالت عائشة : رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل  
 الله ( وليضربن بخمرهن على جيوبهن ) شققن مروطهن فاخترن بها .

( ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناءهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن ) أى قل المؤمنات لا يظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن ، فإنهم المقصودون بها ، والمأمورات نساؤهم بصنعها لهم ، حتى إن لهم ضربين على تركها ، ولهم النظر إلى جميع بدنهن ، أو لآباء النساء أو لآباء الأزواج أو لأبنائهن أو لأبناء أزواجهن أو لأخواتهن أو لأبناء الإخوة أو لأبناء الأخوات ، لكثرة المخالطة بينهم وبينهن ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم ولأن الطباع السليمة تأبى أن تفتن بالفريبات ، إلى أنهن محتاجات إلى صحبتهم في الأسفار للركوب والنزول .

( أو نسائهن ) أى المختصات بهن بالصحبة والخدمة .  
 ( أو ما ملكت أيمانهن ) من الجوازي ، أما العبيد فقد اختلفوا فيهم ، فقال قوم عبد المرأة محرم لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان غفيفا ، وله أن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالخارج ، وروى ذلك عن عائشة وأم سلمة ، وقد روى أن عائشة كانت تمتشط وبعدها ينظر إليها ، وقال قوم هو كالأجنبي معها وهو رأى ابن مسعود والحسن وابن سيرين ، ومن ثم قالوا لا ينظر العبد إلى شعر مولاته ، وسئل طاوس هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها ؟ قال ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاما يسيرا ، فأما رجل ذو لحية فلا .

( أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ) وهم الذين يتبعون القوم ليصيبيوا من فضل طعامهم لا غرض لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم إلى النساء ، إما لأنهم طعنوا في السن فقنيت شهواتهم ، وإما لكونهم ممسوحين قطعت منهم أعضاء التناسل .  
 ( أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ) أى أو الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة والقدرة على ملاسة النساء .

ثم نهى عن إظهار وسوسة الحلى بعد النهى عن إبداء مواضعه فقال :  
 ( ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ) أى ولا يضربن بأرجلهن

الأرض لتقعقع خلاخلهن ، فإن ذلك مما يهيج الرجال ويورث ميلا إليهن ، وللنساء أفانين في هذا فقد يجعلان الخرز ونحوه في جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هو ناك كان له رنين وصوت خاص ، ومن الناس من تهبجه وسوسة الحلى أكثر مما تهبجه رؤيته .

( وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ) أى ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من غض البصر وحفظ الفرج وترك دخول بيوت غيركم بلا استئذان ولا تسلیم ، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

أخرج أحمد والبخارى والبيهقى في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه كل يوم مائة مرة » .

ومن شرط التوبة : الإقلاع عن الذنب والندم على ما مضى والعزم على ألا يعود إليه ورد الحقوق إلى أهلها ، لا كما يظن الناس الآن أنها كلمة تلاك باللسان دون أن يكون لها أثر في القلب ولا عزم على عدم العود ، حتى إن كثيرا ممن يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون ما فعلوه من الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره ، وهذا دليل على أنهم كاذبون في توبتهم مرادون في أفعالهم .

وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِمِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْزِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتِمُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ

بَعْدَ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ  
وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤).

### شرح المفردات

الأيامى : واحدهم أيم وهو كما قال النضر بن شميل كل ذكر لا أثنى معه ، وكل أثنى لا ذكر معها بكرا كانت أو ثيبا ، ويقال أمت المرأة وآم الرجل إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله فى الرجل إذا مات امرأته وفى المرأة إذا مات زوجها ، والصالحين : أى الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه ، والإماء : واحدهن أمة وهى الرقيقة غير الحرة ، واسع : أى غنى ، وليستغف : أى وليجتهد فى العفة : لا يحدون : أى لا يتسكنون من وسائله وهى المال . والكتاب والمكاتبة : كالعتاب والمعاتبة يراد بها شرعا إعتاق المملوك بعد أداء شىء من المال منجما أى فى مواعدين أو أكثر فيقول له كاتبك على كذا درهما ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداء عتق وصار أحق بمكاسبه ، كما صار أحق بنفسه ، والفتيات : واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة العبد والأمة ، والبغاء : الزنا ، والتحصن : العفة ، لتبتغوا أى لتطلبوا : عرض الحياة الدنيا : أى الكسب وبيع الأولاد ، مبيئات : أى مفصلات ما أتم فى حاجة إلى بيانه من الأحكام والآداب ، مثلا : أى قصة عجيبة من قصص الماضين كقصة يوسف ومريم .

### المعنى الجملى

لما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج ونحوهما مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى ، لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع وحفظ الأنساب الذى يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد وحسن تربيتهم ودوام الألفة بينهم ؛ ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه ، ثم رغب فى مكاتبة الأرقاء ، ليصيروا

أحراراً في أنفسهم وفي أموالهم يتزوجون كما يشاءون ، وبعدهذا أردف ذلك بالنهاى عن إكراه الإماء على الفجور إن أردن العفة ، ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا . ثم ختم هذا ببيان أنه أنزل عليكم في هذه السورة وفي غيرها آيات مبينات لكل ما أنتم في حاجة إلى بيانه من أحكام وآداب وحدود زاجرة ، وعقوبات رادعة ، وقصص عجيبية عن الماضين وأمثال مضروبة لتكون عبرة وذكرى لكم .

## الإيضاح

( وأنكحوا الأيامى منكم ) أى زوّجوا من لزوج له من الأحرار والحرائر : أى من الرجال والنساء ، والمراد بذلك المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك كمدّم بالمال وتسهيل الوسائل التي بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة . ( والصالحين من عبادكم وإمائكم ) أى والقادرين والقادرات على النكاح والقيام بحقوق الزوجية من الصحة والمال ونحو ذلك .

والخلاصة — إن في الآية أمراً للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية وللسادة بتزويج العبيد والإماء ، والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان لا على الوجوب ، لأنه قد كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وفي سائر العصور بعده أيامى من الرجال والنساء ولم ينكر ذلك أحد عليهم ، والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل أو المرأة . ثم رغب في الزواج بالفقير والفقيرة وألا يكون عدم وجدان المال حائلاً عن إتمامه فقال :

( إن يكونوا فقراء يعنهم الله من فضله ) أى لا تنتظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون زواجها ، ففي فضل الله ما يعينهم والمال غاد ورأج .  
وكم يسر أتي من بعد عسر وفرج كربة القلب الشجي  
( والله واسع عليم ) أى والله ذو سعة وغنى ، فلا انتهاء لفضله ولا حد لقدرته ،

فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما ، وهو عليم ببسط الرزق لمن يشاء ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

قال ابن عباس : أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم ووعدهم في ذلك الغنى .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله » .  
وبعد أن بين حال القادرين على النكاح ووسائله ، بين حال العاجزين عن تلك الوسائل فقال :

( وليستغف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ) أى وليجتهد في العفة وضمون النفس من لا يتسكن من المال الذى به يتم النكاح ، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله حتى يصل إلى بغيته من النكاح ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أعض للبصر وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » الباءة مؤن النكاح من مهر ونفقة وكسوة ، والوجاء نوع من الخصاء يكون برض عروق الأنثيين مع بقاء الخصيتين كما هما ، فثبه الصوم في قطعه شهوة النساء به .

( والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ) أى والمماليك الذين يطلبون من ساداتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين نجوما ليصيروا بعد أدائها أحرارا ، ويكونون قادرين على الكسب وأداء ما كوتبوا عليه مع الأمانة والصدق - فكاتبوهم ويكونون بعد انتهاء الأجل وأداء ما أوجبوه على أنفسهم أحرارا في رقابهم وفى كسبهم .

ثم حث المؤمنين جميعا على تحرير الرقاب فقال :

( وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ) أى وآتوا أيها السادة للمكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم وليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم ، وأموا لكم

ملكه ، وأعطوا أيها الحكام المكاتبين سهومهم التي جعلها الله لهم في بيت المال في مصارف الزكاة بقوله ( وفي الرقاب ) أى في تحرير الأرقاء .

وفي هذا حث لجميع المؤمنين على عتق الرقاب ، روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح يريد العفاف ، والجاهد فى سبيل الله » .

ثم نهى المؤمنين عن السعى فى جمع المال بسبيل الحرام فقال :

( ولا تكثرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ) أى ولا تكثرهوا إماءكم على الزنا إن كنَّ يردن التعفف والتحصن ، التماسا لعرض الدنيا من مال وزينة ورياش .

وفي قوله : ( إن أردن تحصنا ) زيادة فى تقييح حالهم وتشنيع عليهم ، فإن ذل اللزوة لا يرضى بفجور من يحويه بيته من إماءه ، فضلا عن أمرهن بذلك أو إكراههن عليه ولا سيما عند إرادة التعفف وتوافر الرغبة فيه .

والخلاصة — لاتعملوا ما أثم عليه من إكراه الإماء على البغاء طلبا لمناجع سريع الزوال وشيك الفناء والاضمحلال .

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضى الله عنه أن جارية لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها ( مُسَيِّكَةٌ ) وأخرى يقال لها ( أميمة ) كان يكرههما على الزنا فشكنا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله وجهه أنهم كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ليأخذوا أجورهن ، فنهوا عن ذلك فى الإسلام ونزلت الآية .

ثم أبان أنهم إن أكرهن فالوزر على من أكرهن لاعلمين فقال :

( ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ) أى ومن يكرهن على البغاء فإن الله غفور رحيم لمن من بعد إكراههن والذنب على المكروه لمن ، وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لمن والله ، لمن والله .

وبعد أن فصل هذه الأحكام وبينها امتن على عباده بذلك فقال :

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين)

أنى ولقد أنزلنا آيات القرآن مبينات لما أتمتم في حاجة إليه من الأحكام والآداب ، كما أنزلنا قصصاً من أخبار الأمم السالفة كقصة يوسف وقصة مريم وفيها شبه بقبص عائشة ، وفيها عظة لمن اتقى الله وخاف عقابه وخشى عذابه .

وأثر عن علي كرم الله وجهه في وصف القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونياً ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ،  
 الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ  
 مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَسْكَدُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ  
 نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ  
 لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) .

### شرح المفردات

نور : أى ذو نور أى هو هادٍ أهل السموات والأرض ، والمراد العالم كله .  
 والمشكاة : لفظ حبشى معرب يراد به الكوة غير النافذة . الزجاج : القنديل من الزجاج . والدرى : المضى المتلألئ منسوب إلى الدر . لاشرقية ولاغربية : أى صاحبة لشمس لا يظلمها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شيء من الشروق إلى الغروب .  
 يضرب الله الأمثال : أى يبين للناس الأشباه والأمثال .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أنزل في هذه السورة آيات مبيّنات لكل ما يحتاج إليه الناس في صلاح أحوالهم في معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق بين أنه نور السموات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية والآيات التي أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك ، هادية إلى صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة .

## الإيضاح

( الله نور السموات والأرض ) أى الله هاد أهل السموات والأرض بما نصب من الأدلة في الأكوان وبما أنزل على رسله من الآيات البينات ، فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلال ينجون .

( مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ) أى مثل أدلته التي بثها في الآفاق وهدى بها من شاء من عباده كنور مشكاة فيها مصباح ضخم ثاقب له الصفات الآتية .  
 ( المصباح في زجاجة ) أى وذلك المصباح في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر .  
 ( الزجاج كأنها كوكب درى ) أى الزجاج كأنها كوكب ضخم مضيء من درارى النجوم وعظامها كالزهره والمُشترى .

( يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية ) أى رويت ذبائته ( فتيلته ) بزيت شجرة زيتونة كثيرة المنافع ، زرعت على جبل عال أو صحراء واسعة فهي ضاحية للشمس لا يظلمها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها ، فزيتها أشد ما يكون صفاء .

فقوله : ( لاشرقية ولاغربية ) أى لاشرقية فحسب ، ولاغربية فحسب ، بل هى شرقية غربية تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها كما يقال فلان لامسافر ولا مقيم إذا كان يسافر أحيانا ويقوم أخرى .

(يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار) أى هو لصفائه وبريقه ولعانه كأنه يضيء بنفسه دون أن تمسه النار ، لأن الزيت إذا كان خالصا صافيا ثم رُئى من بعد يرى كأن له شعاعا ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء .. كذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتبه العلم ، فإذا جاءه ازداد نورا على نور وهدى على هدى .

قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له ، لموافقته إياه ، وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .  
( نور على نور ) أى هو نور مترادف متضاعف ، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يعوى النور ويزيده إشراقا ويمده بإضاءة بقية .

ذاك أن المصباح إذا كان فى مكان ضيق كالمشكاة كان أضواؤه وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينبعث فيه وينتشر ، والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاءه .

( يهدى الله لنوره من يشاء ) أى يوفق الله من يشاء من عباده لإصابة الحق بالنظر والتدبر وتوجيه الفكر لسلك طريق الجادة الموصلة إليه ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى سواء لديه جنح الليل اللأمس ، وضحوة النهار الشامس ، وعن على رضى الله عنه : « الله نور السموات والأرض ونشر فيهما الحق وبته فأضاء بنوره » .

( ويضرب الله الأمثال للناس ) أى ويسوق الله الأمثال للناس فى تضاعيف هدايتهم على حسب ما تدعو إليه حالهم ، لما فيها من الفوائد فى النصح والإرشاد ، إذ بها تتفتق الأذهان للوصول إلى الحق ، وبها تأنس النفس بتصويرها المعانى بصور المحسوسات التى تألفها وتدين بها ، ولأمر ما كثرت فى القرآن الكريم فقلما ساق حجاجا أو أقام دليلا إلا أردفه بالمثل ليكون أدعى إلى الإقناع ، وأرجى للاقتناع .  
( والله بكل شىء عليم ) فيعطى هدايته من يستحقها ممن صفت نفوسهم ،

واستعدوا للتلقى أحكام الدين وآدابه ؛ وكذلك يجعل وسائلها على ضروب شتى على حسب اختلاف أحوال عباده ، لتقوم له الحجة عليهم .

وفي هذا وعد وبشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها ، ووعيد وإنذار لمن لم يتفكر فيها ولم يكثر بها ، فإنه لا يصل إلى الحق ولا يهتدى لطريقه .

وخلاصة ذلك ما قاله ابن عباس : هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن ، فكما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته ازداد ضوءاً على ضوء - يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه ازداد هدى على هدى ونورا على نور .

فِي بُيُوتٍ أَدَانَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزَيِّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

### شرح المفردات

المراد بالبيوت : المساجد ، وأذن : أمر . أن ترفع : أى أن تعظم وتظهر عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال . يسبح : أى ينزه ويقدمس . الغدو والغداة : أول النهار . والآصال : واحدها أصيل وهو العشى : أى آخر النهار . تلهيهم : أى تشغلهم وتصرفهم . تجارة : أى نوع من هذه الصناعة ، ولا يبيع : أى فرد من أفراد البياعات وخصه بالذكر لأنه أدخل في الإلهاء ، وإقام الصلاة : أى إقامتها لمواقيتها ،

وإيتاء الزكاة : أى المال الذى فرض إخراجه للمستحقين ، واليوم : هو يوم القيامة ،  
وتتقلب فيه القلوب والأبصار : أى تضطرب وتتغير من الهول والفرع .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر - جلت الآؤه - نوره لعباده وهدايته بإيام على أتم الوجوه - بين  
هنا حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية .

### الإيضاح

( فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ) أى كشكاة فى بيوت أمر  
الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية والمعنوية ، كاللغو ورفث الحديث وأمر بذكره فيها  
وإخلاص العبادة له .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « المساجد بيوت الله فى الأرض تضىء  
لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض » .

وعن عمرو بن ميمون قال : أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وهم يقولون : المساجد بيوت الله ، وحق على الله أن يكرم من زاره فيها .

( يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام  
الصلاة وإيتاء الزكاة ) أى ينزه الله ويقده فى أول النهار وآخره ، رجال لا تشغلهم  
الدنيا وزخرفها ولا يبيعونهم وتجاراتهم عن ذكر ربهم وهو خالقهم ورازقهم ،  
إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم ، فما عندهم ينفد، وما عند الله باق ،  
ويؤدون الصلاة فى مواقيتها على الوجه الذى رسمه الدين ، ويؤتون الزكاة المفروضة  
عليهم تطهيرا لأنفسهم من الأرجاس .

ونحو الآية قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ  
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » الآية وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ  
الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » .

ثم ذكر السبب في شغل أنفسهم بالعبادة فقال :

( يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ) أى إنهم يخافون عقاب يوم تضطرب فيه الأفئدة من الهول والفرع وتشخص فيه الأبصار من الهلع والخيرة والرجب والخوف .

ونحو الآية قوله : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » وقوله : « إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » .

ثم بين مآل أمرهم وحسن عاقبتهم فقال :

( ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ) أى يفعلون هذه القربات من التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة مع الخوف من عذاب يوم القيامة - ليثيبهم الله على حسناتهم التى فعلوها ، فرضها ونفلها واجبها ومستحبها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ، فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا » .  
وفى قوله ( أحسن ما عملوا ) إيماء إلى أنه لا يجازيهم على مساوى أعمالهم بل بغفرها لهم .

( ويزيدهم من فضله ) أى يجزيهم بأحسن الأعمال ويضاعف لهم ما يشاء كما قال : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » وقال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

ثم نبه إلى كمال قدرته وعظيم جوده وسعة إحسانه فقال :

( والله يرزق من يشاء بغير حساب ) أى إنه تعالى يعطيهم غير أجرية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب ، فهم لما اجتهدوا فى الطاعة ، وخافوا ربهم أشد الخوف - جازاهم بالثواب العظيم على طاعتهم وزادهم الفضل الذى لا غاية له لخوفهم من قهره وشديد عذابه .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ  
 إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ  
 الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لَّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ  
 مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ  
 يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَحْمِلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) .

### شرح المفردات

السراب : ما يرى في الغلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب ويجرى على  
 وجه الأرض كأنه ماء ، والقَيْعَةُ والقاع : المنبسط من الأرض ، والظَّمَانُ : شديد  
 العطش . لَجِيٍّ : أى ذى لج (بالضم) واللج معظم الماء، والمراد بحر عميق الماء كثيره .  
 يَغْشَاهُ : أى يغطيه . لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا : أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

### المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أحوال المؤمنين وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله وبه  
 يستمسكون بالعمل الصالح ، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم - أردف  
 ذلك ببيان حال أضدادهم وهم الكفار ، فذكر أنهم يكونون في الآخرة في أشد  
 الخسران والبوار ، وفي الدنيا في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكتبتنا  
 الحالين مثلا يوضحها أتم الإيضاح والبيان .

### الإيضاح

(والذين كفروا أعماهم كسرابٍ بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده  
 شيئا) شبه الأعمال الصالحة التي يعملها من جعلوا توحيد الله وكذبوا بهذا القرآن

وَمِنْ جَاءَ بِهِ وَيظنون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب في العاقبة  
 آمالهم ويلقون خلاف ما قدروا - بالسراب يراه من اشتد به العطش فيحسبه  
 ماء فيطلبه ويظن أنه قد حصل على ما يبغي، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً - هكذا  
 حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعة منجية لهم من بأس الله، حتى إذا جاءهم  
 العذاب يوم القيامة لم تنفعهم ولم تغنهم من عقابه إلا كما ينبتع بالسراب من اشتد  
 ظمؤه، واحتاج إلى مائه يروى غلته .

ثم بين شديد عقابه بقوله :

(ووجد الله عنده فوفاه حسابه) أى ووجد عقاب الله الذى توعده به الكافر من أمامه  
 وعندئذ تغير ما كان يظنه من النفع العظيم إلى ضرر محقق فجاءته الزبانية تعتله وتسوقه  
 إلى جهنم وتسقيه الحميم والعساق . ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ  
 فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(والله سريع الحساب) لا يشغله حساب عبد عن حساب آخر .

وخلاصة ماسلف - إن الخيبة والخسران فى الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال  
 فى الدنيا كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين وقوى الأضياف ونحو ذلك . وظنوا أنها  
 تنجيهم من عذاب الله ، وهم مع ذلك جاحدو وحدانية ربهم مكذبون لرسله ،  
 فما مثلهم إلا مثل من اشتد أومه ورأى السراب فخاله ماء وظن أنه قد وجد ضالته  
 فسعى إليه ، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ورجع يئس خنين .

هذه حالهم فى الآخرة ، أما حالهم فى الدنيا فكما قال :

(أو كظلمات فى بحر لئيم يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب)  
 أى ومثل أعمالهم التى عملت على غير هدى مثل ظلمات مترادفة فى بحر عميق مأوّه ،  
 بعيد غوره ، يغطيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب - فالظلمات هى أعمال  
 الكافرين ، والبحر اللئيم قلوبهم التى غمرها الجهل وتغشها الخيرة والضلالة ،

فلا تعقل ما في السكون من آيات ولا تسمع عظة الناصحين ، ولا تبصر حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض .

قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل ، وقال ابن عباس : هي ظلمة قلبه وبصره وسمعه .

والخلاصة — إن الكافر لشدة إصراره على كفره تراكت عليه الضلالات ، حتى إن أظهر الدلالات إذا ذكرت عنده لا يفهمها ، فقلبه مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم .

(ظلمات بعضها فوق بعض) أي ماتقدم ذكره ظلمات متراكمة ، فإن البحر يكون مظلم القعر جدا بسبب غور الماء ، فإذا تراكمت الأمواج ازدادت الظلمة ، فإذا كان فوق الماء سحاب يغطي النجوم ويحجب أنوارها بلغت الظلمة حدا عظيما .

(إذا أخرج يده لم يكدرها) أي إذا أخرج الناظر يده ، وهي أقرب ما يرى إليه ، لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أي ومن لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة فما له هداية من أحد .

ونحو الآية قوله : « وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » .

وخلاصة ذلك — من لم يول الله نور توفيقه ولطفه فهو في ظلمة الباطل لانور له .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ ، كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) .

## شرح المفردات

يسبح: أى ينزه ويقدس ، صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء ،  
المصير: المرجع .

## المعنى الجملى

لما وصف سبحانه قلوب المؤمنين بالنور والهداية وقلوب الكافرين بالظلمة -  
أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد وساق منها ثلاثة .

## الإيضاح

(١) ( ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات )  
أى ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه آنا فأنا فى ذاته وصفاته وأفعاله جميع ما فى السموات  
والأرض من العقلاء وغيرهم ، تنزيها تفهمه أرباب العقول السليمة ؛ إذ كل المخلوقات  
فى وجودها وبقائها دالة على وجود خالق لها متصف بصفات الكمال منزه عن  
صفات النقص .

وخص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال ،  
من جراء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أدخلوا بالتنزيه ، فجعلوا  
الجمادات شركاء له سبحانه ، ونسبوا له اتخذ الولد إلى نحو أولئك ، تعالى ربنا  
عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

كما ذكر الطير مع دخولها فى جملة ما فى الأرض ، من قبل أنها غير مستقرة  
فيها ، ولا استقلالها ببديع الصنع وإنابتها عن كمال قدرة خالقها واطف تدبير مبدعها ،  
فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل التى تتمكن بها من الوقوف فى الجو وتتحرك  
كيف تشاء ، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط والتحرك يمينا  
وشمالا - حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع الجيد ، وحكمة المبدع المعيد .

( كلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ) أى كل مصلٍّ منهم  
ومسبح قد علم الله صلواته وتسبيحه ، لا يخفى عليه شئ من أفعالهم طاعتها ومعصيتها ،  
محيط علمه بها ومجازيهم عليها .

وقد يكون المعنى - إن كل مصلٍّ ومسبح يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح  
الذى كلف به ، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم  
الديقية التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

انظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها المسدسة التى لا يتمكن من بنائها فطاحل  
المهندسين ، وإلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب ، وإلى  
الدب يستلقى فى ممر الثور ، حتى إذا قرب منه ورام نطحه شبت ذراعيه بقرنيه  
ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يشخه :

( والله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ) أى إن الله تعالى ملك السموات  
والأرض وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجادا وإعداما بدءا وإعادة ، وإليه وحده  
مصيركم ومعادكم ، فيوفيكم أجور أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فأحسنوا عبادته  
واجتهدوا فى طاعته وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا مِّمَّ يُؤْتَفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يُجْعِلُهُ رُكَامًا  
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ  
بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرَقَهُ يَذْهَبُ  
بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي  
الْأَبْصَارِ (٤٤) .

## شرح المفردات

يزجى : يسوق برفق وسهولة ، يؤلف : أى يجمع بين أجزائه وقطعه ، ركاما : أى متراكما بعضه فوق بعض ، الودق : المطر ، من خلاله : أى فتوقه التى حدثت بالترام ، واحدها خلل كجبال وجبل ، من جبال : أى من قطع عظام تشبه الجبال ، والسنا : الضوء ، يذهب بالأبصار : أى يحطفها لشدة ضوئه وسرعة وروده ، وهو كقوله فى البقرة « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » يقبل الله الليل والنهار : أى يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا فى قصر ذلك حتى يعتدلا ويغير أحوالهما بالحر والبرد ، لأولى الأبصار : أى لأهل العقول والبصائر .

## الإيضاح

(٢) هاتان الآيتان هما ثانى الدليلين على وحدانية الله وقدرته .

وخلاصتهما — ألم تعلم أيها الرسول الكريم أن الله يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئه ، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه ثم يجعل بعضه متراكما فوق بعض ، فينزل المطر من فتوقه ، وحينما يُنزل منه قطعا كبيرة من الترد كأنها الجبال ، فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده ، فينال الخير والنفع العميم أو الضرر الشديد إذا كان فوق الحاجة ، ويصرفه عن يشاء أن يصرفه ، وأن لهذا السحاب برقاً يضيء بشدة وسرعة حتى ليكاد يحطف الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة ، إذ فيه توليد الضد من الضد ، ففيه توليد النار من الماء .

وانظر أيضا إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر ، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ، إن فى هذا لعبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن تأمل فيه ممن له عقل ، فهو واضح الدلالة على أن له مدبرا ومقلبا لا يشبهه شيء .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : يؤذنبى

ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار» أخرجه البخارى ومسلم .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) .

### الإيضاح

(٣) هذا هو ثالث الأدلة على التوحيد ، فقد استبدل أولاً بأحوال السماء والأرض ، وثانياً بالآثار العلوية ، وهنا استبدل بأحوال الحيوان فقال :

( والله خلق كل دابة من ماء ) أى والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من ماء هو جزء مادته .

وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد ، لظهور احتياج الحيوان إليه ، ولا سيما بعد كمال تركيبه ، ولا متزاج الأجزاء القرابية به .

ثم فصل أقسام الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال :

( فمنهم من يمشى على بطنه ) كالحيات والسمك وغيرهما من الزواحف ، وسمى حركتها مشياً مع كونها تزحف زحفاً ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى كأنها تمشى .

( ومنهم من يمشى على رجلين ) كالإنسان والطيور .

( ومنهم من يمشى على أربع ) كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه ما يمشى على أكثر من ذلك كالعنكب وغيرها من الحشرات ؛ لدخوله في قوله :

( يخلق الله ما يشاء ) مما ذكر وما لم يذكر مع الاختلاف في الصور والأعضاء

والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل .

(إن الله على كل شيء قدير) أى إن الله على إحداث ذلك وخلقته وخلق ما يشاء من الأشياء - لئذو قدرة فلا يتعذر عليه شيء أرادته .  
وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمار والأخلاق - لابد أن يكون بتدبير مدبر حكيم مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) .

### المعنى الجملى

بعد أن ساق سبحانه ما يدل على وجوده من أحوال السماء والأرض والآثار العلوية وأحوال الحيوان - ذكر هنا أن هذه وغيرها آيات واضحات دالة على وجود الخالق المدبر للكون لاخفاء فيها .

### الإيضاح

( لقد أنزلنا آيات مبينات ) أى لقد أنزلنا عليك دلائل واضحات على طريق الحق والرشاد ، لكن لا يصل إلى فهمها إلا من أوتى بصيرة نيرة وفطرة سليمة تضىء له الفكر حتى يسير على نهج الحق ويتبعد عن الغي والضلال ، ومن ثم قال :  
( والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ) أى والله يرشد من يشاء إلى الطريق الذى لا عوج فيه ، وهو إخلاص العبادة له وحده والإنابة إليه .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ

يَنفَعُهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرَضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ  
مُدْعِينَ (٤٩) أَلَيْسَ لِقُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ  
عَالِيَهُمْ وَرَسُولَهُ ؟ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ  
إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ  
هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ  
هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُورَثَهُمْ لِيُخْرِجُنَّ ،  
قُلْ لَا تَقْسِمُوا ، طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ  
أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ  
مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) .

### شرح المفردات

يتولى : أى يعرض ، مدعنين : أى منقادين ، مرض : أى فساد من أصل  
القطرة يحملهم على الضلال ، ارتابوا : أى شكوا فى نبوتك ، يحيف : أى يحور ،  
الظالمون : أى الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم ، ويخشى الله : أى فيما صدر  
منه من الذنوب فى الماضى ، ويتقّه : أى فيما بقى من عمره ، جهد أيمانهم : أى أقصى  
غايتهما ، من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها ، تولوا : أى تولوا (يحذف  
إحدى التائين) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتمّ بيانها، ثم ذكر أنه يهتدى  
بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون

الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فيقولون : آمنا بالله وبالرسول ثم يفعلون ضد ما يقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا ما دعى إلى الله والرسول قال سمعا وطاعة ثم يتبن بعض أكاذيبهم التي يراءون بها ويدعون الإخلاص فيها ، فنها أنهم يحفون أغاظ الأيمان إنهم مطيعون للرسول في كل ما يأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سريعا ، ثم أمر الرسول بنبيهم عن الخلف والأيمان ؛ لأن طاعتهم معرفة لا تحتاج إلى يمين ، وبأن يقول لهم : أطيعوا الله حقا لا رياء ، فإن أبيتهم فإنما على التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطمعتموني اهتديتم ، وإن توليتهم فقد فعلت ما كلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية في بشر المنافق دعاه يهودى في خصومة بينهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ، ثم تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم لليهودى فلم يرض للمنافق بقضائه عليه السلام فقال نتحاكم إلى عمر رضى الله عنه ، فلما ذهب إليه قال له اليهودى : قضى لى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أ كذلك ؟ قال بلى ، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل رضى الله عنه بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

## الإيضاح

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى ويقول هؤلاء المنافقون ، صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الرسول ثم يخالفون ذلك فيعرضون عن طاعة الله ورسوله ضلالاً منهم عن الحق ، وما أولئك بالمؤمنين المحلصين الثابتين على الإيمان ، بل هم ممن في قلوبهم مرض وقد مرتوا على النفاق يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

وأخلاصة ذلك — لا يدخل في زمرة المؤمنين من يقول آمنا بالله والرسول وأطعنا ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة وينحاز إلى غير المؤمنين .  
ثم بين هذا التولى بقوله :

( وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ) أى وإذا دعى هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسوله ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه بحكم الله — أعرضوا عن قبول الحق واستكبروا عن اتباع حكمه ، لأنه لا يحكم إلا بالحق . ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا » .

( وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ) أى وإذا كانت الحكومة لهم لاعلمهم جاءوا إلى الرسول مطيعين ، لعلهم بأنه يحكم لهم ، لأنه لا يحكم إلا بالحق ، فإذا علمهم لم يكن عن اعتقاد أن حكمه الحق ، بل لأنه وافق هواهم ، ومن جراء هذا لما خالف الحق قصدوا عدلوا عنه إلى غيره .

ثم فصل ما يحتمل أن يكون هو السبب في عدولهم عن قبول حكمه صلى الله عليه وسلم بقوله :

( أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ ) أى أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق ؟ أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في نبوته عليه السلام على ظهور أمرها ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ؟ .  
وأخلاصة ذلك — لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق ، أو عروض شك في الدين ، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم وأيا كان الأمر فهو كفر وضلال ، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض .

ثم أبطل السببين الأولين وأثبت الثالث فقال :

( بل أولئك هم الظالمون ) أى ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب ، فهم ما عدلوا إلا لما فى قلوبهم من المرض والنفاق وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أحبوا وكرهوا والتسليم لقضائه .

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق بين صفات المؤمن الكامل فقال :

( إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ) أى ينبغى أن يكون قول المؤمنين إذا دعاهم الداعون إلى حكم الله وإلى حكم رسوله فيما بينهم وبين خصومهم - سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم ، وأولئك هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مخوف .

وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع من الطاعة أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز فقال :

( ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ) أى ومن يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك ما نهىه عنه ، ويخش الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصى ، ويتقه فى مستأنف أموره ، فأولئك هم الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزون برضا الله عليهم يوم القيامة ، والآمنون من عذابه .

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من أكاذيب المنافقين بقوله :

( وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ) أى وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالذين غايتها - لئن أمرتهم بالخروج للجهاد والغزو ليلبثنَّ الطلب وليخرجنَّ كما أمرت .

والخلاصة - إنهم أغلظوا الإيمان وشددوها فى أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك وقالوا : أينما كنت نكن معك ، فإن أقت أقتنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا . فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوه بهذه الأيمان الفاجرة وأمره أن يقول لهم :

(قل لا تتقسموا) أى قل لهم : لا تحلفوا ، فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى قسم ويمين لوضوح كذبه .

ثم علل النهى عن الحلف بقوله :

(طاعة معروفة) أى لا تتقسموا لأن طاعتكم معروفة لنا ، فهى طاعة باللسان فحسب من غير مواطاة من القلب لها ، ولا يجهلها أحد من الناس .

ونحو الآية قوله : « يَخَافُونَ لَكُمْ أَنْ تُرَضُّوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » وقوله : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَاهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

ثم هددهم وتوعدهم على أيمانهم الكاذبة وأنه يجازيهم على أعمالهم السيئة ، ولا سيما ذلك النفاق المفضوح فقال :

(إن الله خبير بما تعملون) أى إنه تعالى لا تخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيا ، فيعلم ما تظهرونه من الطاعة المؤكدة بالأيمان الكاذبة ، وما تبطنونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين ونحو ذلك من أفانين الشر والفساد التى دبرتموها .

ولما نبه سبحانه إلى خداعهم وأشار إلى عدم الاعتراض بأيمانهم - أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله :

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى مرهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وفى هذا إيماء إلى أن ما أظهوره من الطاعة ليس منها فى شيء .

ثم أكد الأمر السابق وبالغ فى إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله :

(فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) أى فإن تولوا عن الطاعة بعد أن أمركم الرسول بها ، فما ضررتم الرسول بشيء ، بل ضررتم أنفسكم ، لأنه عليه

ما أمر به من تبليغ الرسالة وقد فعل ، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة ، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتهم فقد عرّضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه ، وإن أطعتموه فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى ، فالنفع والضرر عائدان إليكم .

(وإن تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه - تهتدوا إلى الحق الموصل إلى كل خير ، المنجى من كل شر ، وما الرسول إلا ناصح وهادٍ ومبلغ لكم ، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب ، وإن خالفتموه أوقعتم أنفسكم فى الهلكة .

والخلاصة - إن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة ، وقد بقى ما يجب عليكم أن تفعلوه .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن بين أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم - أردف ذلك بوعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء فى الأرض ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً فيعبدون الله وحده وهم آمنون ، ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك فقد غصى ربه وكفر أعمه .

روى الطبراني والحاكم وابن مردويه عن أبي بن كعب قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ » فنزلت الآية .

## الإيضاح

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) أى وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم - ليورثهم أرض المشركين من العرب والعجم ، وليجعلنهم ملوكها وساستها ، كما استخلف بنى إسرائيل بالشام حين أهلك الجبارة وجعلهم ملوكها وسكانها .

وقد وفي سبحانه بوعده فإنه لم يمت عليه السلام حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، والمقوقس في مصر ، والنجاشي ملك الحبشة .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا منهجه ، وافتتحوا كثيرا من المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوكها خزائنهم واستعبدوا أبناء القياصرة ، وصدق قول رسوله : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

(ولم يكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) أى وليجعلن دين الإسلام راسخا قويا ثابت القدم ، ويعظم أهله في نفوس أعدائه الذين يواصلون الليل بالنهار في التدبير لإطفاء أنواره لتعفو آثاره .

(وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) أى وليغيرن حالهم مما هى عليه من الخوف إلى الأمن ، قال الربيع بن أنس : « كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نجوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سرا

وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله : أبدأ الدهر ونحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبيا ليس فيه حديدة ، فأنزل الله وعد الله الذين آمنوا « إلى آخر الآية .

ونحو الآية قوله : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصْمِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ثم أتبع ذلك بتعليل التمكين وما معه بقوله :

(يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) أى يعبدوننى غير خائفين أحدا غيرى .  
(ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى ومن جحد هذه النعم فأولئك هم الذين أنكروا فضل المنعم بها وتناسوا جليل خطرهما .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ  
(٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) .

### شرح المفردات

معجزين فى الأرض : أى جاعلين الله عاجزا عن إدراككم وإهلاككم وإن هربتم فى الأرض جميعها .

## المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم فى الأرض ويجعل لهم من بعد الخوف أمناً - أردف ذلك بأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكراً له على ما أنعم به عليهم، وإحساناً إلى عباده البائسين الفقراء كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزة وضعفهم قوة، ثم أعقبه برفع استبعاد تحقق الوعد السابق، مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وبعثذذكر أن ما لهم النار، وبأس القرار.

## الإيضاح

( وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول أعلكم ترحمون ) أى أقيموا أيها الناس الصلاة على الوجه الذى رسمه الدين فى موافقتها ولا تضيعوها، وآتوا الزكاة التى فرضها على أهلها، لما فيها من الإحسان إلى الفقير والمسكين وذوى البؤس والحاجة وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه، لعل ربكم أن يرحمكم فينجيكم من شديد عذابه.

ثم بين أن الكافرين سيحل بهم النكال ولا يجدون مهرباً مما أوعدهم به ربهم فقال:

( لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ) أى لا تظنن أيها الرسول أن الكافرين يجدون مهرباً فى الأرض إذا أردنا إهلاكهم، بل نحن قادرون على أخذهم والبطش بهم متى أردنا، والكلام من وادى قولهم: ( اسمى يا جاره ).

وبعثذذبين ما لهم فى الآخرة فقال:

( وماوهم النار ولبئس المصير ) أى كما أنا سنضيق عليهم فى الدنيا وننكل بهم ولا يفلتون من عذابنا - سنجعل عاقبة أمرهم ناراً تاكل لا يوصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى.

والخلاصة — إنه سيلحقهم سخطنا في الدنيا وسينالهم النل والصغار ، وسيكون مصيرهم في الآخرة نارا وسعيرا وحما وغساقا جزاء وفاقا ، إنهم كذبوا بآياتنا كذابا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ، بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) .

### شرح المفردات

ما ملكت أيمانكم : يشمل العبيد والإماء أى الذكران والإناث ، الحلم : بسكون اللام وضمها أى وقت البلوغ إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة سنة من حلم بفتح اللام ، تضعون : أى تخلعون ، الظهيرة : وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار ، والعورات : أى الأوقات التي يختل فيها استتركم ، من قولهم : أعور الفارس : إذا اختلت حاله . جناح : أى إثم وذنب ، طوافون عليكم : أى يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية ، القواعد : واحدها قاعد ، وهى المعجوز ، لا يرجون نكاحا أى لا يطعن فيه لكبر سنهن ، والتبرج : التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، من قولهم : سفينة بارج ، إذا كان لا غطاء عليها .

## المعنى الجملى

بعد أن نهى فيما سلف عن دخول الأجنبي في البيوت إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها ، وبين أن في ذلك الخير كل الخير لهم ، فإن لم يجدوا فيها أحدا رجعوا ؛ لما لذلك من كبير الأثر في المجتمع الإسلامى ، بصيانة الآداب العامة ومنع القيل والقال وحفظ الأعراض والأنساب .

استثنى في هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض ودخول المملوكين على ساداتهم ، وبين أن الاستئذان لا يكون في جميع الأوقات ، بل في ثلاث أوقات هي عورات لأرباب البيوت لما فيها من رفع الكفاية وقلة التحفظ في السر ، ثم ذكر أن النساء الطاعنات في السن إذا لم يطمعن في الزواج فلا حرج عليهن إذا لم يستعملن الزينة ، وعليهن أن يتعففن جهد الطاقة .

روى أن سبب نزول الآية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضى الله عنه غلاما من الأنصار يقال له مُدْلَج ، وكان عمر نائما فدق عليه الباب ودخل فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء ، فقال : لو ددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن ، فانطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الآية قد نزلت نحر ساجدا » وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضى الله عنه للوحى .

وقيل إن السبب ماروى من أن أسماء بنت أبى مرثد دخل عليها غلام كبير لها في وقت كرهت دخوله فيه فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرها فنزلت الآية .

## الإيضاح

( يأيتها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة

العشاء) أى لا يدخل أيها المؤمنون فى بيوتكم عبيدكم وإماؤكم ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات من ساعات ليلتكم ونهاركم إلا بإذن : قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، وكل ذلك مظنة انكشاف العورة ، وحين تخلعون ثيابكم التى تلبسونها وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، لأنه وقت خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم .

وخص هذه الأوقات الثلاثة ، لأنها ساعات الخلو ووضعت الثياب والاتحاف باللعاف .

وهكذا حكم حال الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم .

ثم علل طلب الاستئذان بقوله :

( ثلاث عورات لكم ) أى لأن هذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم يختل فيها التستر عادة .

وبعد أن بين حكم هذه الأوقات الثلاث بين حكم ما عدا ذلك فقال :

( ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ) أى ليس عليكم معشر أرباب البيوت ولا على الذين ملكت أيمانكم من الرجال والنساء ولا على الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم حرج ولا إثم فى غير هذه العورات الثلاث .

والخلاصة - لا حرج ولا إثم على الناس أن يدخل عليهم مماليتهم البالغون وصبيانهم الصغار بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاث - أما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال .

ثم علل الإباحة فى غيرها بقوله :

( طوافون عليكم بعضكم على بعض ) أى هؤلاء المالك والمالكة والصبيان الصغار يدخلون ويخرجون على مواليتهم وأقربائهم فى منازلهم غدوة وعشية بغير إذن ، لأنهم يخدمونهم ، أو لاحتياج الأقارب إليهم ، كما أن السادة والأقارب يطوفون على ذوى قرباتهم ومماليتهم إذا عرضت لهم حاجة إليهم .

ثم بين فضله على عباده في بيان أحكام دينهم فقال :

( كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ) أى ومثل هذا التبيين لتلك الأحكام يبين لكم شرائع دينكم وأحكامه ، والله عليم بما يصلح أحوال عباده ، حكيم في تدبير أمورهم ، فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم في المعاش والمعاد .  
 روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ( بأيتها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ) الآية ، وقوله في النساء : ( وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى ) الآية ، وقوله في الحجرات : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في العورات الثلاث التي أمر الله بها في القرآن فقال : إن الله ستير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم ، فرمى نجا الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات ، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأوا أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به .

ولما بين الله حكم الأرقاء والصبيان الذين هم أطوع للأمر وأقبل لكل خير - أتبعه بحكم البالغين الأحرار بقوله :

( وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ) أى وإذا بلغ الصغار من أولادكم وأقربائكم الأحرار سن الاحتلام وهو خمس عشرة سنة فلا يدخلوا عليكم في كل حين إلا بإذن لاني أوقات العورات الثلاث ولا في غيرها ، كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وذكر الله في هذه الآية حكم الأطفال إذا بلغوا ولم يذكر حكم ما ملكت أيماننا مع أن ما قبلها فيه ذكر المالك والأطفال - لأن حكم ما ملكت اليمين واحد كبارهم وصغارهم ، وهو الاستئذان في الساعات الثلاث التي ذكرت في الآية قبل .

ثم أكد نعمه عليهم ببيان أحكام دينهم بقوله :

(كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) أى كما بين لكم ما ذكر غاية البيان ، يبين لكم ما فيه سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، وهو العليم بأحوال خلقه ، الحكيم فيما يدبر لهم .

ولما بين سبحانه حكم الحجاب حين إقبال الشباب أتبعه بحكمه حين إدباره فقال :  
(والتواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) أى والنساء اللواتى قعدن عن الولد كبراً ، وقد يؤسن من التبعيل فلا يطمن فى الأزواج ، فليس عليهن إثم ولا حرج أن يخلعن ثيابهن الظاهرة كالملحفة والجلباب الذى فوق الحمار إذا كن لا يبيدين زينة خفية كشعر ونحو وساق لدى المحارم وغير المحارم من الغرباء .

وخلاصة ذلك — لاجتراح على التواعد من النساء أن يجلسن فى بيوتهن بدرع وشمار ويضعن الجلباب ، ما لم يقصدن بذلك الزينة وإظهار ما يجب إخفاؤه — هذا إذا لم يكن فيهن بقية من جمال تورث الشهوة ، فإن كان فيهن ذلك فلا يدخلن فى حكم الآية .

(وأن يستعففن خير لهن) أى وإن تعففن عن وضع جلايبهن وأردتيهن ، فلبسها كان ذلك خيراً لهن من خلعهما ، لتباعدن حينئذ عن التهمة ، ولقد قالوا : لكل ساقطة فى الحى لاقطة .

ثم توعد من يخالف تلك الأوامر فقال :

(والله سميع عليم) أى والله سميع بما يجرى بينهن وبين الرجال من الأحاديث ، عليم بمقاصدهن لاتخفى عليه خافية من أمرهن ، فاحذروا أن يسؤل لكم الشيطان مخالفة ما به أمر وعنه نهى .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ  
 حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ  
 أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ  
 أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ  
 أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا  
 جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَامُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ  
 عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ  
 تَعْقِلُونَ (٦١) .

### شرح المفردات

الحرج لغة: الضيق ، ويراد به في الدين الإثم ، ماملكتكم مفاتحه : أى ما كان  
 تحت تصرفكم من بستان أو ماشية بطريق الوكالة أو الحفظ ، والصديق : يطلق على  
 الواحد والجمع كالخليط والعدو ، جميعا : أى مجتمعين ، أشتاتا : أى متفرقين ، واحدهم  
 شتيت ، على أنفسكم : أى على أهل البيوت ، طيبة : أى تطيب بها نفس المستمع .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المالك والصبيان الدخول في البيوت في غير العورات  
 الثلاث بلا استئذان ولا إذن من أهل البيت - ذكر هنا أنه لا حرج على أهل هذه  
 الأعدار الثلاثة في تركهم للجهد وما يشبهه ، وذلك يستلزم عدم الاستئذان منه  
 صلى الله عليه وسلم فلهم القعود عندئذ من غير استئذان ولا إذن ، كما لا حرج عن  
 ذكروا بعدهم في الأكل من البيوت المذكورة في الآية .

قال صاحب الكشاف : والكلام على هذا التفسير صحيح لالتقاء الطائفتين في أن كلا منهما منفي عنه الحرج ، ومثاله أن يستغنى مسافر عن الإفطار في رمضان وحاجٌّ مُفْرَد عن تقديم الحلق على النحر فتقول : ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاجٌّ أن تقدم الحلق على النحر .

قال الحسن : أنزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله عنه الجهاد وكان أعمى . وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن عمرو ، وكان قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلف مالك بن يزيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تخرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك .

### الإيضاح

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى ليس على هؤلاء الثلاثة إثم في ترك الجهاد اضعفهم وعجزهم ، قاله عطاء وزيد بن أسلم . ونحو الآية قوله في سورة براءة : « لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد من الحرج المنفى في الآية الحرج في الأكل ، ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ » تخرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام فأنزل الله هذه الآية . والمعنى على هذه الرواية : ليس في مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

(ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) أى لا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ، ويشمل ذلك بيوت الأولاد ، لأن بيت الولد كبيته ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « أنت ومالك لأبيك » وقوله : « إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه ، وإن ولده من كسبه » .

وفائدة ذكر قوله : ( على أنفسكم ) الإشارة إلى أن الأكل المذكور مع أنه لا حرج فيه لا يخل بقدر من له شأن فقد كثرت إقحام ( النفس ) في ذوى القدر كقوله : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » ولم يقل : كتب ربكم عليه الرحمة ، وقوله في الحديث القدسي « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى » ولم يقل : حرمت الظلم على .

وذكر هذا الحكم وهو معلوم ، ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساويه ما بعده

في الحكم .

( أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ) لما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب .

( أو ما ملكتم مفاتيحه ) عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته ، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية ولكن لا يحمل ولا يدخر ، وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ، فإن جعل له أجرا فلا يخل له أكل شيء منها .

( أو صديقكم ) أى أو بيوت أصدقاتكم الذين يصدقونكم المودة وتصدقونهم ، هذا إذا علم رضاهم بذلك بالإذن أو بشاهد الحال ، ولا فرق بينهم وبين غيرهم إذا وجد الإذن .

قال ابن زيد : هذا شيء قد انقطع ، إنما كان في أوله ولم يكن لهم ستور أبواب وكانت الستور مرخاة فرما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد وربما وجد الطعام وهو جائع فسوغ له أن يأكل منه ، ثم قال ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا اه .

وعلى هذا ، فالمعنى يجوز الأكل من بيوت هؤلاء وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وإن كانت ضعيفة .

وإنما خص هؤلاء بالذكر ، لأنهم اعتادوا التبسط بينهم ، والرضا فيهم محقق غالباً .

وعن جعفر الصادق رضى الله عنه . من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ .

وقيل لأفلاطون : من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال لا أحب أخى إلا إذا كان صديقى ، ولكن أتى هو ؟ فقد أثر عن هشام بن عبد الملك أنه قال : نلت ما نلت حتى الخلافة ، وأعوزنى صديق لا أحشم منه .

ثم استأنف سبحانه حكماً آخر من نوع ما قبله فقال :

( ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ) أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة أنها نزلت في بنى ليث ابن عمرو بن كنانة تخرجوا أن يأكلوا طعامهم متفرقين ، وكان الرجل منهم يمكث طوال يومه لا يأكل حتى يجد ضيفاً يأكل معه ، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً ، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله إلى الرواح ، وقد تكون معه الإبل الحقل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل ، وفي مثل هذا يقول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلاً فإني لست آكله وحدى

وفي الحديث : « شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفته » وإنما ذم هذا لأنه يخل بالقرى .

ثم شرع سبحانه يبين ما ينبغى رعايته حين دخول البيوت بعد أن ذكر الرخصة فيه فقال :

( فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ) أى فإذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت فليسلم بعضكم على بعض .

وفي التعبير عن أهل تلك البيوتات ( بأنفسكم ) إيماء إلى السبب الذى اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت ، وأنه إنما كان ؛ لأن الداخل فيها كأنه داخل في بيته لما بينهما من قرابة أو نحوها .

( تحية من عند الله مباركة طيبة ) أى حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى مشروعة من لدنه ، يرجى بها زيادة الخير والثواب ويطيب بها قلب المستمع .  
وعن جابر بن عبد الله قال : « إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة » أخرجه البخارى وغيره .  
روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : أوصانى النبي صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال : « يا أنس ، أشبع الوضوء يزد فى عنرك ، وسلم على من لقيك من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت ( يعنى بيتك ) فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، يا أنس ، ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقاء يوم القيامة » .  
( كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعملون ) أى هكذا يفصل الله لكم معالم دينكم ، كما فصل لكم فى هذه الآية ما أحل لكم فيها وعرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه ، لئلا تفتقروا أمره ونهيه وأدبه ، وبذا تفوزون بسعادة الدارين ويكون لكم اللقاه المحمود عند ربكم .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أُمَّةٍ  
جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ  
مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْمَلُوا دَعَاءَ الرَّسُولِ  
بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ  
لِوَأْذَا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ؛ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) .

## شرح المفردات

أمر جامع : أى خطب جليل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء كقتال عدو أو تشاور في حادث قد عرض ، والتسلل : الخروج من البيت تدريجاً وخفية ، واللواذ والملاوذة : التستر، يقال لاذ فلان بكذا، إذا استتر به ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، فتنة : أى بلاء وامتحان في الدنيا ، عذاب أليم : أى عذاب مؤلم موجه في الآخرة .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بالاستئذان عند الدخول أمرهم بالاستئذان حين الخروج ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلى الله عليه وسلم كتشاور في قتال أحد أو في حادث عرض ، وبيّن أن من يفعل ذلك فهو من كامل الإيمان ، ثم أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه ، ثم أمر المؤمنين أن يبجلوا نبيهم ولا يسموه باسمه بل يقولوا يا نبي الله ، ويا رسول الله ، وليحذروا أن يخالفوا أمره وسنته وشريعته ، بل عليهم أن يزينوا أقوالهم وأفعالهم بأقواله وأفعاله ، فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على فاعله وقائله كأننا من كان ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

## الإيضاح

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذوه) أى ما المؤمنون حق الإيمان إلا الذين صدقوا الله ورسوله ،

وإذا كانوا مع رسوله على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت أو صلاة اجتمع لها أو تشاور في أمر قد نزل ، لم ينصرفوا عما اجتمعوا له حتى يستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا أدب على نهج سابقه ، فكما أرشدهم من قبل إلى الاستئذان حين الدخول ، أمرهم بالاستئذان حين الانصراف ، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع ، روى الترمذى والنسائى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » .

ولما كان الإذن كالدليل على كمال الإيمان والمميز للمخلص من غيره أعاده مؤكداً بأسلوب أبلغ فقال :

( إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ) أى إن الذين لا ينصرفون إذا كانوا معك أيها الرسول في أمر جامع إلا بإذنك لهم ، طاعة منهم لله ولك ، وتصديقاً بما أتيتهم به من عنده - أولئك هم المؤمنون حقا .

ولما ذكر ما يلزم المؤمن من الاستئذان أعقبه بما يفعله الرسول حينئذ فقال :

( فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ) أى فإذا استأذنوك لبعض ما يعرض لهم من مهام أمورهم فأذن لمن شئت منهم أن ينصرف لقضاء ما عرض له ، على حسب ما تقتضيه المصلحة التى تراها ، كما وقع لعمر رضى الله عنه حين خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، حيث استأذن فى الرجوع إلى أهله فأذن له صلى الله عليه وسلم وقال له : ارجع فلست بمنافق .

( واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ) أى وادع الله أن يتفضل عليهم بالعتق عن تبعات ما بينه وبينهم ، إنه غفور لذنوب عباده التائبين ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

وفي هذا إيماء إلى أن الاستئذان وإن كان لعدر قوى - فيه بعض الملامة لما فيه من تقديم شئون الدنيا على أمور الآخرة ، كما أن فيه احتفالا برسوله صلى الله عليه وسلم إذ جعل الاستئذان للذهاب عنه ذنبا محتاجا إلى الاستغفار ، فضلا عن الذهاب بلا إذن ، ورتب الإذن على الاستئذان لبعض شأنهم لاعلى الاستئذان لأى أمر مهما كان ، مهما كان أو غير مهم ، على أنه علق الإذن بالمشيئة .

وبعد أن ظهر في هذه السورة شرف الرسول ، ولا سيما في هذه الآيات التي بهرت العقول - أردف هذا بما يؤكده فقال :

( لاتجملوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ) أى لاتقيسوا أيها المؤمنون دعاءه عليه السلام إياكم بدعاء بعضكم بعضا فى المساهلة والرجوع من مجلسه بغير استئذان ، فإن هذا محرم عليكم .

ثم توعد المنصرفين خفية بغير استئذان فقال :

( قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا ) أى قد يعلم الله الذين يخرجون متسللين من المسجد فى الخطبة واحدا بعد واحد من غير استئذان خفية مستترين بشيء ، وإن علمهم هذا إن خفى على الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يخفى على من يعلم السر والنجوى ومن لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ويعلم الدواعى التى تحملهم على ذلك ، ولديه الجزاء على ما يفعلون ، وكان من المنافقين من يشغل عليه استماع الخطبة والجلوس فى المسجد فإذا استأذن أحد من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتره فأنزله الله الآية ، رواه أبو داود .

( فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ) أى فليمتق الله من يفعلون ذلك منكم ، فينصرفون عن رسول الله بغير إذنه ، أن تصيبهم محنة و بلاء فى الدنيا أو يصيبهم عذاب مؤلم موجه فى الآخرة ، بأن يطبع الله على قلوبهم فيتأدوا فى العصيان ومخالفة أمر الرسول ، فيدخلهم النار وبئس القرار .

والآية تعم كل من خالف أمر الله وأمر رسوله وحمد على التقليد من بعد ماتين له الهدى وظهر له الصواب من الخطأ .

وبعد أن أقام الأدلة على أنه نور السموات والأرض ، ثم حذر كل مخالف لرسوله صلى الله عليه وسلم - ختم السورة ببيان أنه المالك لموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا وإيجادا وإعداما بدءا وإعادة ، فقال :

( ألا إن لله مافى السموات والأرض ، قد يعلم ما أتمم عليه ) أى إنه تعالى مالك السموات والأرض وإنه عالم بما يعمل العباد كما قال : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وقال تعالى : « أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ »

ثم هدد وتوعد فقال :

( ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ) أى ويوم يرجع الخلاق إلى ربهم حين العرض والحساب يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وكبير وصغير كما قال : « يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وقال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وبعدئذ ذكر ما هو كالدليل على ما سلف بقوله :

( والله بكل شيء عليم ) أى إنه سينبئهم بما عملوا في حياتهم الأولى ، لأنه ذو علم بكل شيء وإحاطة به وهو موفى كل عامل أجر عمله ، يوم يرجعون إلى حكمه ، إذ لا حكم يومئذ إلا هو .

عن عقبة بن عامر قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة النور، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول بكل شيء بصير» أخرجه الطبرانى وغيره ، قال السيوطى بسند حسن .  
وصل ربنا على محمد النبي الأمى وعلى آله .

### بجمل ما حوته السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

- ( ١ ) عقوبة الزانى والزانية .
- ( ٢ ) عقوبة قاذفى الحصنات الغافلات المؤمنات .
- ( ٣ ) حكم قذف الزوجات .
- ( ٤ ) قصص الإفك وبراءة أم المؤمنين عائشة .
- ( ٥ ) آداب الزيارة .
- ( ٦ ) أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج .
- ( ٧ ) نهى النساء عن إبداء زينتهن لغير بعولتهن الخ .
- ( ٨ ) أمر المؤمنين بإنكاح الأيامى من الرجال والنساء ، فالجتمع الإسلامى كأنه أسرة واحدة .
- ( ٩ ) أمر من لم تتوافر له وسائل النكاح لعدم وجود المال أو سواه بالعفة حتى يغنيه الله .
- ( ١٠ ) بيان أن الأعمال الصالحة التى يعملها الكافرون فى الدنيا لاتجدى لهم نفعا يوم القيامة ، بل تكون كسراب ببيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .
- ( ١١ ) الأدلة التى نصها الله فى الأكوان علويها وسفليها شاهدة بوحدانيته .
- ( ١٢ ) المناقون يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .
- ( ١٣ ) وصف المؤمنين الصادقين .

- (١٤) وعد الله عباده المؤمنين بأنه سيستخلفهم في الأرض وينشر دينهم الذي ارتضى لهم .
- (١٥) استئذنان الموالى والأطفال في أوقات ثلاث إذا أرادوا الدخول على أهلهم .
- (١٦) رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في الجهاد .
- (١٧) لاحرج في الأكل من بيوت الآباء والأمهات الخ بلا إذن .
- (١٨) نهى المؤمنين عن الانصراف من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا معه في أمر جامع .
- (١٩) إباحة إذنه لهم إن شاء حين الطلب .
- (٢٠) بيان أن مجلس الرسول مبعث موقر وليس كمجلس المؤمنين بعضهم مع بعض .